أليكس هيلي

الجذور

ملحمة عائلية للزنوج في أمريكا

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب: الجذور.. ملحمة عائلية للزنوج في أمريكا (رواية)

الكاتب: أليكس هيلي

ترجمة: صبحي سلامة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هيلي ، أليكس

الجذور.. ملحمة عائلية للزنوج في أمريكا (رواية) / أليكس هيلي،

ترجمة : صبحي سلامة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٦١ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٣٢ / ٢٠٢٠

الجذور
ملحمة عائلية للزنوج في أمريكا

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

من هو أليكس هيلي ؟

في ١١ أغسطس من عام ١٩٢١م ولد أليكس هيلي ، وتوفي في ١٠ فبراير من عام ١٩٩٢ م، وهو مؤلف أمريكي اشتهر كمؤلف لكتاب "جذور . ملحمة عائلة أمريكية" والذي يتناول تاريخ الأمريكيين السود، والذي عُرض كمسلسل تلفزيوني وككتاب "مذكرات مالكوم إكس".

و"جذور" رواية تاريخية ألفها أليكس هيلي ونشرت لأول مرة عام ١٩٧٦م، ثُم أنتجت كمسلسل تلفزيوني باسم "جذور" عام ١٩٧٦، وعلى امتداد ١٢ ساعة والذي لاقى رواجاً كبيراً في العالم الغربي والعالم العربي أيضاً. ثُم أنتج جزءاً ثانياً بطول ١٤ ساعة باسم "جذور . الجيل التالي". وقام سعيد محمد عبد المنعم بترجمة الكتاب إلى العربية ونشرته دار مدبولي للنشر عام ٢٠٠٥ م.

حاول هيلي تتبع تاريخ عائلته مُنذ أحد أجداده والذي يُدعى كونتا كونتي والذي استُعبد واستُحضر ليعمل كرقيق إلى الولايات المُتحدة. وتناقلت الأجيال اللاحقة قصة كونتا وكيف أنه كان شخصاً حُراً في زامبيا. إلى أن حصل أحد أحفاد كونتا على الحُرية والذي هو جد هيلي من جهة والدته. وبحث هيلي العادات الإفريقية وعادات الإفريقيين الأمريكيين ليدمجها في قصة رائعة تتحدث عن تاريخ عائلة مُنذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

المترجم

الفصل الأول

في صباح أحد الأيام وبالتحديد يوم الأحد من عام ١٨١٨ م عاد الأمريكي جورج من البيت ليقوم بشحن الزنوج الأحرار إلى ليبريا ليروي ما سمعه من الضيوف، قال:

- إنهم كانوا يتحدثون عن شركة اسمها «شركة استعمار إفريقيا»، وكان السادة البيض يضحكون عما يُقال للسود من أن شرائح لحم الخنزير تتدلى من الأشجار كالأوراق

وأضاف السيد أن السفن لا تنقل الأعداد الكافية من الزنوج..

وقالت الأخت سارا:

- أنا أرفض بكل تأكيد أن أذهب مع كل هؤلاء الزنوج إلى إفريقيا حيث يعيش الناس مع القردة فوق الأشجار.

وتدخلت كيزي في الحديث قائلة بحدة:

- من أين جاءتك هذه المعلومات؟ لقد جاء أبي من إفريقيا، ومن المؤكد أنه لم يكن يعيش فوق الأشجار.

وقالت الأخت سارا بعصبية:

- حسناً.. الجميع يقولون ذلك.

وعقب العم بومبي على ذلك قائلا:

- لا تصدقي كل ما يقال، وعلى أي حال لن تأخذك أي سفينة لأنك لست من العبيد الأحرار.

وصاحت الأخت سارا قائلة:

- ما كنت أذهب لو كنت من الأحرار.

عندما عاد العبيد إلى أكواخهم، قال جورج لأمه:

- مامي، لا أظن أن الأخت سارا كانت تقول الحقيقة.

وسكت جورج لحظة ثم أردف يقول:

- مامي.. أريد أن أسمع المزيد عن جدي الذي كان من إفريقيا.

وأجابت كيزي بقولها:

- لقد رويت لك كل ما أعرفه وليس لدي المزيد، وأعرف جيدا أنك لا تنسى شيئا، فإذا طلبت أن أعيد على مسامعك قصة معينة فسوف أقصها عليك.

سكت جورج قليلا ثم عاد يقول:

- مامي، سوف أقص على أبنائي كل ما أعرفه عن جدي.

ابتسمت كيري في سعادة وهي ترى ابنها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره يفكر في أبناء المستقبل.

ارتفعت أسهم جورج لدى السيد والسيدة، وأصبح من حقه أن يتجول في أنحاء المزرعة كيف يشاء، ربما لساعات طويلة بعيدا عن محلة العبيد، وعاد في غسق أحد أيام الأحد ليخبر كيزي أنه قضى اليوم في زيارة ذلك الرجل الذي يشرف على ديكة المصارعة التي يمتلكها السيد وقال:

- ساعدته في القبض على أحد الديكة التي فرت من الأقفاص، وظللنا بعد ذلك نتبادل الأحاديث، إنه ليس إنسانا غريبا كما يقولون، لم أر في حياتي مثل تلك الديوك، وقد سمح لي العجوز أن أطعمها بعض الأعشاب وأخبرني أن الأمهات لا يتحملن في تربية أطفالهن نصف المشقة التي يتحملنها في تربية الديوك المقاتلة.

لم تعلق كيزي على ذلك بشيء، ومضى جورج يقول:

- أطلعني العجوز على الطريقة لكي يساعدها على المهارة في القتال.

وقالت كيزي محذرة:

- من الأفضل لك يا بني أن تبتعد عن مزرعة الدواجن، فالسيد لا يسمح لمخلوق بالاقتراب من ذلك المكان.

- أخبرني العم منجو أنه سيطلب من السيد أن يسمح لي بمساعدته في إطعام صغار الديوك.

قصت كيزي على الأخت سارا في صباح اليوم التالي المغامرة الأخيرة لجورج، وعقبت سارا على ذلك بقولها:

- أعرف جيدا أنك لا تحبين أن أقرأ لك الطالع، ولكن دعيني أخبرك عن مستقبل ذلك الولد، لن يكون زنجيا عاديا، سوف يشق لنفسه طريقا جديدا ومختلفا كلما اشتد عوده.

***

في جلسة ودية جلس العم منجو وهو يتحدث مع السيد عن ذلك الغلام الذي نسى أن يسأله عن اسمه قائلاً:

- إنه يتصرف كولد أحسنت تربيته ويبدو أنه مطيع عندما وافق السيد على إعطاء الصبي فرصة ليعاون منجو

شعر الأخير بالارتياح، فطالما كان يرجو سيده أن يعين له مساعدا، وأدرك العم منجو أن هذه الموافقة إنما جاءت لقرب موعد مصارعة الديكة وما لاحظه عليه السيد من اعتلال صحته وكثرة نوبات السعال التي أصابته خلال الشهور الماضية، وبذلك صار بمقدور العم منجو أن يترك لمساعده مهمة إطعام الديكة الصغار، حتى يتفرغ هو لتدريب الديكة التي قاربت العامين وتوشك أن تدخل حلبة الصراع.

تلقى جورج في أول يوم تدريبا على إطعام مجموعة من الديوك المتجانسة في السن والحجم، وعندما رأى الصبي يقوم بمهمته بطريقة مقبولة، عهد إليه بعد ذلك بإطعام الديوك الأكبر التي لا تستكمل عامها الأول، ومع هذا فهي تحاول أن تتقاتل فيما بينها، واستمر منجو يعلم الصبي خلال الأيام التالية كيف يطعم الديوك القمح المجروش

والأصداف والفحم، ويغير لها ماء الشرب ثلاث مرات في اليوم، وكثيرا ما كان جورج يضحك عاليا وهو يرى صغار الديكة تنشر أعرافها وهي تتحفز لتقاتل الديكة التي أتمت هامها السادس أو السابع وهي تحمل آثار جراح المعارك السابقة، وتخيل جورج نفسه واحدا من صغار الديكة، بينما العم منجو أحد تلك الديوك الكبار.

وكان السيد يجيء مرة على الأقل كل يوم راكبا جواده ليلقي نظرة على مزرعة الديوك، وكان جورج يتوارى عن الأنظار كيلا لا يقع عليه نظر السيد الذي ابتدأ ينظر إليه بجفاف، وقد سمع جورج من المس ماليزي أن السيد لم يكن يسمح للسيدة نفسها بالاقتراب من مزرعة الدواجن.

وعندما يرتحل السيد عن جواده ويبدأ في التفتيش على حظائر الدواجن، يحرص العم منجو على أن يسير وراءه بخطوة، كم لاحظ جورج أن السيد يتحدث مع العم منجو بمودة على عكس طريقته في الكلام مع العم بومبي والأخت سارا وأمه الذين يخدمون في الحقل، وفي بعض الأحيان عندما كانت الجولة التفتيشية تقترب من المكان الذي يعمل فيه جورج كان يسمع قول السيد:

- أتصور أنني سأحتاج هذا العام إلى ثلاثين ديكا؛ لهذا من الأفضل أن تجهز يا منجو ستين ديكا قبل اقتراب الموسم.

- نعم يا سيدي، عندما يحين الموعد يكون لدينا أربعون ديكا مستعدا للمعركة.

امتلأت رأس جورج بعشرات الأسئلة للعم منجو دون مسوغ، واعتبر العم منجو ذلك في صالح الصبي، لأن لأصحاب مزارع ديوك المصارعة أسرارهم التي يحرصون على كتمانها، ورغم الحول في عينيه الضيقتين، فإن العم منجو كان حريصا بدوره على أن يلقي بتعليماته للصبي ويراقبه من طرف خفي ليرى كيف ينفذ التعليمات، وأثلج صدره أن الصبي لا يحتاج لتكرار التعليمات أكثر من مرة واحدة.

أسرّ العم منجو للسيد بعد مضي بعض الوقت أن جورج قد أبدى تفهما ملحوظا لعمله، وفوجئ بالسيد يقول له:

- لقد كنت أفكر في أنك سوف تحتاج لخدماته طول الوقت، ولما كان كوخك صغيرا، فإنني أرى أن تبني له كوخا بجوارك ليكون تحت تصرفك وقتما تشاء.

ارتاع منجو لفكرة أن يقتحم أي إنسان غريب المكان الذي ظل خالصا له وحده مع الدواجن طوال العشرين عاما الماضية، ولكنه لم يستطع أن يعبر صراحة عن رأيه، وعندما انصرف السيد قال لجورج بلهجة مريرة:

- يقول السيد: "إنني أحتاج إليك هنا طول الوقت"، ربما كان يعلم شيئا لا أعرفه.

وأجاب جورج ببراءة:

- ولكن أين أنام يا عم منجو؟

- سوف نبني لك كوخا.

وبقدر ما كان يسر جورج أن يبقى بجوار العم منجو والديوك إلا أنه كان يعلم أن ذلك يعني نهايته أيام اللعب في البيت الكبير والاحتفاء بالضيوف بعد أن بدأت المسز لي تقربه، وفكر في الطعام الشهي الذي كانت تقدمه له المسز ماليزي في المطبخ، ولكن أسوأ ما في الأمر ترك محلة العبيد وابتعاده عن أمه.

كانت كيزي تضع قدميها المتعبتين في إناء مملوء بالماء الساخن عندما عاد جورج متهجم الوجه وقال:

- مامي، لدي ما أقوله لك.

- حسنا.. إنني منهكة القوى ولا أحب أن أسمع شيئا عن تلك الديوك.

أخذ جورج نفسا عميقا قبل أن يقول:

- مامي.. ليس الأمر كما تتصورين، طلب السيد من العم منجو أن يبني لي كوخا لأقيم هناك.

وصاحت كيزي بحدة:

- يريدك أن تنتقل من هنا؟ لماذا لا تظل هنا حيث عشت طوال الوقت؟

تراجع جورج خطوة إلى الوراء أمام ثورة أمه قائلا:

- أنا لم أطلب ذلك، السيد هو الذي أمر مامي.. إنني لا أريد أن أتركك!

- إنك لم تبلغ السن التي تسمح لك بالانتقال إلى أي مكان، أراهن أن العجوز منجو هو الذي وضع الفكرة في رأس السيد.

- كلا يا مامي، لأن الفكرة نفسها لا تروقه، إنه لا يحب أن يشاركه أحد في أسراره.

وسكت جورج برهة، وهو يفكر في عبارة تهدي ثائرة أمه وقال:

- السيد يعاملني بلطف يا أمي، يعاملني أنا والعم منجو بطريقة تختلف عن معاملته للعاملين بالحقل.

أدرك جورج بعد فوات الأوان أن أمه أحد العاملين بالمزرعة وبدت الغيرة والمرارة على وجه كيزي وهي تصرخ في وجهه قائلة:

- إن السيد لا يهتم بشيء من أمورك، ربما كان أبوك، ولكنه لا يعبأ بشيء سوى الديوك.

صعقت المرأة كما صعق الصبي للكلمات التي أفلتت من شفتيها، وعندما هدأت كيزي قليلا أردفت تقول:

- هذا صحيح، كل ما يهم السيد أن تساعد ذلك الزنجي العجوز الأحمق في العناية بالدواجن المقاتلة لكي يزداد ثراء.

تجمد جورج في مكانه، وهددته كيزي بقبضة يديها قائلة:

- حسنا، لماذا أنت واقف هنا؟ اخرج من كوخي!

قالت ذلك وهي تقذفه بملابسه القليلة، تسمر جورج في مكانه بينما غادرت كيزي الكوخ باكية في طريقها إلى المس ماليزي.

سالت دموع جورج، ولم يجد أمامه سوى أن يضع ملابسه في غرارة ويذهب إلى مزرعة الدواجن، ووضع الغرارة تحت رأسه ليستخدمها كوسادة واستغرق في النوم، وعندما رآه العم منجو قبيل الفجر أدرك ما حدث وقال للصبي:

- سوف تصبح الدواجن هي كل حياتك يا فتى.

لم يجب جورج بشيء، فقد كان باله مشغولا بالتفكير فيما قالته أمه، لقد كان أبوه هو سيده، أو سيده هو أبوه، لا يستطيع أن يفكر في الأمر بطريقة أخرى.

وعندما رأى العم منجو الصبي عازفا عن الكلام استرسل:

- إنني أعرف أن الزنوج في محلة العبيد يعتبرونني إنسانا شاذا، أعتقد أنني كذلك.

أدرك جورج أن العم منجو يتوقع منه أن يقول شيئا، ولكنه لم يشأ أن يحدثه عن الآخرين فيه، وبدلا من ذلك طرح عليه السؤال الذي كان يشغل باله منذ زيارته الأولى:

- أيها العم منجو.. لماذا تختلف هذه الديوك عن غيرها؟

وأجاب العم منجو باحتقار:

- إنك تتحدث عن تلك الديوك التي لا تحسن شيئا سوى الأكل، هذه الديوك هنا كما يقول السيد شبيهة بتلك الديوك التي كانت تعيش في الغابات منذ زمن طويل، إنها تقاتل أي ديك يقترب من دجاجاته.

كان جورج يرغب في توجيه عدد من الأسئلة الأخرى، ولكن العم منجو استرسل يقول:

- الطيور الحقيقية هي التي تخرج من البيضة، وليس في رأسها شيء سوى الرغبة في القتال، ويقول السيد أيضا إن الملوك والرؤساء يحتفظون بديوك القتال، لأن هذه هي الرياضة الحقيقية اليوم.

لاحظ العم منجو أن جورج حملق في الندوب التي تملأ يديه ومعصميه، وغاب العجوز برهة وعاد يحمل مهمازا صلبا أطرافه محددة كالإبر وقال:

- سوف تكون مثلي عندما تبدأ في التعامل مع هذه الطيور ما لم تكن شديد الحرص.

خلال الأسابيع التالية، كانت تمضي فترات طويلة دون أن يبدي العم منجو رغبة في الحديث لطول العهد الذي اعتاد فيه الوحدة، ولكنه بدأ يعتاد على وجود جورج في كوخه الجديد بالقرب منه، وكان يقطع الصمت ليحدث الصبي عن ديوك القتال وكيف أن الطعام الجيد والتدريب المستمر هما الوسيلة الوحيدة لكي تفوز هذه الطيور في الصراع وتضيف المزيد من المال إلى ثروة السيد، وقال العم منجو ذات يوم:

- إن السيد لا يخشى رجلا في حلبة الصراع، في الواقع إنه يحب مقاتلة طيور السادة الأغنياء، الذين يملكون قطيعا من الديكة لا يقل عن الألف، إنه لا يملك كما ترى قطيعا كبيرا، ومع هذا فهو يربح الكثير من مراهناته أمام هؤلاء السادة الأثرياء.

سكت العجوز برهة ثم أردف يقول:

- هل تسمعني أيها الفتى؟ كثير من الناس لا يدركون كم يستطيع الإنسان أن يجمع من الثروة من وراء قتال الديوك.. إنني أعرف شيئا واحدا: لو أن أحدهم عرض علي أن أختار بين مائة فدان لزراعة القطن أو الطباق وبين ديك مقاتل حقيقي لما ترددت لحظة في اختيار ديك القتال، هذه هي نفس مشاعر السيد أيضا، لهذا لم يحاول أن يمتلك مساحة كبيرة من الأرض أو يمتلك عددا كبيرا من العبيد.

عندما بلغ جورج الرابعة عشرة من عمره بدأ يقضي أيام الآحاد مع الزنوج في محلة العبيد، وبعد مضي كل تلك الفترة عاد يؤكد لأمه من جديد أنه لا يحمل لها أي ضغينة للطريقة التي حدثته بها عن أبيه، ولكنه لا يزال يفكر كثيرا في الموضوع الذي لم يحاول أن يناقشه مع أحد ومعي بصفة خاصة.

كان جميع الزنوج في محلة العبيد في شوق إلى معرفة أسرار ما يدور في مزرعة دواجن القتال، ولكن جورج كان شديد الحرص على كتمان الأسرار والحديث عن الأمور الروتينية، فكان يخبرهم مثلا عن

مطاردة الديوك لأحد الفئران لقتله، وهجومها على ثعلب ومطاردتها للقطط، وأن الدجاجات لا تقل شراسة عن الديوك وأن بعضها يصبح كالديكة، وكيف أن السيد لا يتسامح قط مع الغرباء الذين يحاولون الاقتراب من المكان لارتفاع الأسعار التي يمكن أن يحصل عليها البعض نظير بيضة مسروقة من نتاج تلك الطيور فضلا عن الطيور نفسها التي يستطيع اللص أن يبيعها في ولاية أخرى أو يدفع بها إلى القتال لحسابه الخاص.

وعندما قال جورج أن العم منجو أخبره أن السيد جويت اشترى ديكا بثلاثة آلاف دولار صاحت مس ماليزي قائلة:

- يا إلهي! بأقل من هذا المبلغ يمكن شراء ثلاثة أو أربعة من العبيد!

قبل أن تغرب شمس الأحد يكون جورج قد أحس بالممل فيترك محلة العبيد مسرعا إلى مزرعة الدواجن يسلي نفسه بقطع الأعشاب الغصة ليطعمها للديكة التي أتمت عامها الأول فهي تستقبله مهللة، ثم يمر على الديوك الكبيرة التي تسير مع زوجاتها في زهو وهي تسير في المزرعة بحرية حيث يتوافر العشب والجراد وغيره من الحشرات فضلا عن الماء الذي يتسرب من الينابيع الطبيعية.

ذات يوم شديد البرد في أوائل شهر نوفمبر وصل السيد في عربة تجرها البغال، وكان العم منجو وجور في انتظار ديكة المصارعة المتحفزة في أقفاصها، وبعد نقلها إلى العربة، ساعد جورج العم منجو في الإمساك بديكه العجوز المفضل، وقال السيد ضاحكا:

- إنه مثلك يا منجو، انتهى من كل معاركه خلال فترة شبابه ولم يعد يصلح الآن لغير الأكل والصياح!

قطب منجو جبينه وهو يقول:

- إنني لم أعد قادرا حتى على مجرد الصياح يا سيدي.

صعد منجو إلى المقعد الأمامي بجوار السيد، بينما رقد جورج في العربة خلف الأقفاص، وعندما ظهر ديك ضحك ناشرا عرفه مطلقا صيحات القتال، طلب السيد منجو أن يطلق ديكه العجوز، وقفز الديك الآخر بسرعة خاطفة لينقض على الديك العجوز، ولكن السيد التقطه دون أن يفتك به الديك الشاب.

استبدل السيد بالديوك التي تجاوز عمرها العامين، أخرى لم تزل في نهاية عامها الأول، واختار ستين ديكا وضع منها كل منها في قفص ليمنعها من القتال فيما بينها، وكان من السيد أن يدرب ضعف العدد الذي يحتاجه من الديكة للقتال يختار من بينها في مواسم القتال أكثرها ضراوة وقدرة على الفوز.

شاهد جورج السيد يصلي ذات صباح في البيت الكبير عاملا صندوقا من الكرتون، وراقب العم منجو وهو يزن كميات مختلفة من دقيق القمح والشوفان، ويخلطها بعجينة من الزبد وزجاجة بيرة، ثم يضيف إليها بياض اثنتي عشرة بيضة من بيض الدجاج المقاتل، ثم يشكل من العجينة قطعا من الكعك المستدير، وقال له العم منجو:

- هذا يعطيك القوة.

وطلب من جورج أن يفتت الكعك ويعطي كل ديك ملء قبضة اليد ثلاث مرات، وأن يضيف إلى ماء الشرب بعض الرمل في كل مرة يغير فيها الماء، وسمع السيد يقول للعم منجو:

- أريد تدريبها بحيث لا يبقى على جسمها سوى العضلات والعظام، لا أريد أوقية واحدة من الشحم وهي تدخل حلبة المصارعة.

شاهد جورج العم منجو وهو يدرب الديكة حتى تتصبب أجسادها عرقا، ثم يضعها في صناديق مغطاة بالقش، ثم يخرجها بعد حين ليلعق رأس كل طائر وعينيه بلسانه قائلا أن ذلك يعود الديكة على تقبل امتصاص الدم المتجلط عند إصابتها بجراح ويساعدها على التنفس.

بعد يومين من بدء العام الجديد، ساعد جورج السيد والعم منجو في تخفيف ريش أجنحة الطيور وأعناقها وتهذيب ذيولها على شكل مروحة، وعندما جاء اليوم المرتقب، أخذ السيد اثني عشر ديكا وضعها في أقفاصها وحملتهم العربة إلى حلبة المصارعة، وخلال الرحلة كان جورج يسمع صياح الديكة في أقفاصها، وأحس في تلك اللحظة بالشيء الكثير من الغبطة والاحترام للعم منجو والسد لي، وعاد يفكر أخرى في شيء من الدهشة والحيرة فيما قالته أمه عن... أو عن أبيه وسيده في نفس الوقت.

شاهد جورج خلال الرحلة عددا آخر من العربات وبعض الفرسان

على جيادهم، كما شاهد بعض الرجال الفقراء يحملون ديوكهم في الطريق إلى حلبة المصارعة وسأل نفسه في دهشة: "ترى هل جاء السيد ذات يوم مترجلا يحمل أول ديك فتح له الطريق نحو الثراء؟"

بعد حوالي الساعتين، بدأ يسمع على البعد صياحا كثيرا من الديكة أخذ يزداد وضوحا مع اقتراب المركبة، غابة فيها كثير من أشجار الصنوبر العالية، وشم جو رائحة الشواء، ثم شاهد عددا كبيرا من العربات تتوقف وسمع همسات تردد:

تووم لي!.. قفز المستر لي من العربة بخفة إلى الأرض وانضم إلى الجمع المتجمهر الذي يضم عددً من السادة البيض بين أطفال في عمر الزهور إلى رجال في أرذل العمر، تطلع جورج حوله ليرى العبيد قابعين داخل العربات للعناية بطيورهم التي تتصايح استعداداً للقتال، كما شاهد بعض الأسرة داخل العربات مما يؤكد أن أصحابها قدموا من أماكن بعيدة وأنهم ينوون قضاء الليل في المكان، وصاح العم منجو:

- كف عن الجلوس في العربة وناولني تلك الطيور.

بدأ جورج منجو الذي شرع يدلك أرجلها وأجنحتها، وعندما انتهى من تدليك آخر ديك طلب من جورج أن يقطع لها بعض التفاحات قائلا:

- إن هذا خير طعام تحبه الديكة قبل بدء القتال.

قفز جورج إلى الأرض بقدميه العاريتين، وشاهد حوله عشرات الأقفاص التي تضم ديوك القتال ويتدرج ألوان ريشها بين الأبيض الناصع

والأسود الفاحم، وفغر فمه من الدهشة عندما شاهد حلبة الصراع وهي عبارة عن دائرة عمقها حوالي القدمين وأرضيتها من الطين الرملي وفي منتصفها تماما دائرة صفين وخطين مستقيمين يبعد كل منهما عن الدائرة لمسافة متساوية من كلا الجانبين، ورفع بصره ليرى الرجال يجلسون فوق ربوة تشرف على الحلقة ويتبادلون الشرب من زجاجات الخمر، وازداد انفعال جورج عندما رأى أحد الرجال الرسميين أحمر الوجه يصيح قائلا:

- أيها السادة.. دعونا نبدأ قتال هذه الطيور.

عاد جورج مسرعا إلى العربة، وشاهد السيد والعم منجو يتجولان حول العربة وهما يتماسان بينما ينظران إلى الديوك بين الحين والجين، وقف جورج على المقعد الأمامي ليتطلع من فوق رؤوس الرجال إلى الحفرة، وشاهد أربعة رجال يتبادلون الحديث في حين اقترب منهما رجلان آخران يحمل كل منهم ديكا تحت إبطه، وارتفعت الصيحات فجأة:

«عشرة على الديك الأحمر».. «الرهان مقبول»، «عشرون على الأزرق».. «خمسة أخرى».. «خمسة إضافية»... «تمت تغطية الرهان»، ازداد الصخب في الوقت الذي بدأ فيه وزن الديكين بحيث لا يسمع بالقتال إذا زاد الواحد عن الآخر بأكثر من أوقيتين.

وصاح أحدهم من على باب الحفرة: "قدموا طيوركم!" وسرعان ما اقترب رجلان من الحفرة كل منهما يحمل ديكه المتحفز للقتال، وعندما تردد النداءات: "وضع الاستعداد!" وضع كل من الرجلين ديكه على

الخط القريب من الدائرة، وعندما أعطيت إشارة البدء بالقتال، ترك كل من الرجلين طائره، وفي لمحة خاطفة قفز كل من الطائرين لينقضَّ على خصمه، وارتطم الطائران ووقعا على الأرض، ولكنهما سرعان ما التحما وتطاير ريشهما في حين صاح واحد من الجمهور:

- أصيب الأحمر بجرح

وشاهد جورج صاحبي الطائرين وكل منهما يفحص طائره قبل أن يدفعه للقتال مرة أخرى، قفز الديك الأحمر عاليا، ونشب أظافره الحادة في رأس الديك الأزرق، وسقط الديك المصاب مرفرفا بجناحيه قبل أن يلفظ آخر أنفاسه، وصاح أحدهم معلنا:

- الفائز طائر المستر جرايسون، بعد دقيقة وعشر ثوان!

شاهد جورج المعركة القتالية ورأى الديك المهزوم يتخبط في دمه، وتابع القتال حتى الجولة السادسة أو السابعة عندما سمع الحكم يقول:

- المستر لي!

أسرع السيد إلى العربة وحمل ديكا تذكر جورج أنه أطعمه وشارك في تربيته، وأحس جورج بالفخر، وتابع المعركة التي انتصر فيها طائر السيد بعد جولتين، وخرج الطائر من الحلبة وهو لا يزال يطلق صيحات الانتصار.

وأعلن الحكم فوز طائر المستر لي في الوقت الذي عهد فيه السيد إلى العم منجو بالطائر الذي كان الدم ينزف من جرح في صدره،

وامتص العم منجو الدم المتجلط، ثم أعاد الديك إلى قفصه ليرقد فوق القش، وقال منجو لسيده:

- أعتقد أننا سوف نتمكن من إنقاذه، أي طائر تختاره للمعركة التالية؟

أشار السيد لي نحو طائر وطلب من جورج أن يحضره، وعندما تسلم الديك سارع إلى الحلبة، بينما سمع جورج تحت قدميه صوت الطائر الجريح وهو يصيح في ضعف، شعر جورج بالخوف والرهبة والحزن، ولم يتصادف أن أحس من قبل بمثل هذه المشاعر، وفي ذلك الصباح ولد مدرب جديد لديوك المصارعة.

الفصل الثاني

حدث ذات يوم ذي صباح جميل أن لمحت السيدة كيزي ابنها وهو يتجه نحو محادثة العبيد، ونظرت إليه بافتخار، وقالت لها الأخت سارا:

- إننا فخورون به مثلك تماماً!

وبينما كان جورج لا يزال يقترب وقبل أن تلتقط أذناه الحديث، حدثت المس ماليزي الآخرين أنها سمعت السيد في الليلة الماضية يقول لبعض أصحاب ديوك المصارعة أثناء الوليمة التي أقامها لهم: أن لديه سبيا سوف يصبح بعد أربع سنين من التدريب من أفضل مدربي ديوك القتال في كل إقليم كازويك، وأضافت المس ماليزي أنها سمعت السيد يقول أيضا للعم منجو: أنه شاهد الصبي من حيث لا يراه وهو راقد على الأرض أمام إحدى الدجاجات التي ترقد فوق البيض وهو يحدثها كأنهما تفهم حديثه عن الكتاكيت التي سوف ترى النور في القريب وتصبح من أفضل ديوك القتال.

وعندما قبل جورج أمه وتبادل التحية مع الآخرين، بدأ الزنوج يقصون عليه آخر ما رددته المس ماليزي من أخبار خلال الأسبوع، قد تقاطرت الأنباء عن وصول أعداد كبيرة من البيض من الشمال ليحلوا محل العبيد الأحرار الذين يقال أنهم يرسلون إلى إفريقيا، ولم تثر تلك الأخبار اهتمام جورج، وقالت الأخت سارا بين ضحك الآخرين:

- لم يعد جورج يهتم بغير أخبار الدواجن.

لم تكن تلك الزيارات أسبوعية تدخل السرور على قلب جورج لأنه يلتقي بأمه والآخرين فحسب، وإنما لأنها تريحه من الوجبات التي يطهوها العم منجو والتي تصلح للدجاج أكثر مما تصلح للآدميين، وكان يعود إلى العم منجو آخر النهار بسلة حافلة بما لذ وطاب من الطعام.

وعندما كان موعد عودته يحين، لم تكن أمه تنسى أن تذكره بالمواظبة على الصلاة، وفي طريق عودته إلى مزرعة الدواجن يشعر جورج بالانتعاش وهو يفكر في الطيور التي أصبحت تشغل كل تفكيره، ولا يكاد يرى أحد الديوك توعكا حتى يسارع إليه، يربت على ظهره ويداعب منقاره ويدلك له رجليه وجناحيه حتى يراه منتصب القامة، وكان منجو يتمنى له التوفيق في عمله الجديد، ولكن جورج كان يتذكر دائما ما قاله له العم منجو من عدم إضاعة الوقت مع الطيور التي لا تبشر بالنجاح، لأن ديوك القتال تمثل بالنسبة لصاحبها استثمارا يمكن أن ينمو مدى الحياة، كما أنه عرضة لأن يضيع في غمضة عين، كان منجو يقول:

- لا تستطيع أن تغامر بديك في القتال قبل أن تعالج أقل عيب تراه في الطائر

وأصبح يؤمن بالمبدأ الذي يدين به السيد والعم منجو، إن ديك القتال الحقيقي هو ذلك الذي يتلقى أكبر قسط من الرعاية والتدريب، والذي تنمو فيه غريزة القتال ليكون شرسا إلى الحد الذي يقاتل فيه في الحلبة حتى الموت.

كان جورج يحب لطيور سيده أن تقتل خصومها في أسرع وقت دون أن تصاب بجراح، ومن الأفضل أن تحقق الفوز فيما لا يربو على ثلاثين أو أربعين ثانية، ولكنه بينه وبين نفسه كان يشعر بسرور أكبر عندما يطول أمد المعركة بين أحد الديوك التي أطعمها منذ الصغر وشارك في تدريبها، وهو يراه يناور الخصم حتى تنهك قوى الديكين وتتدلى ألسنتهما وتهتز أرجلهما، وعندما يبدأ الحكم في العد من واحد إلى عشرة ينتهز الديك الذي يملكه سيده الفرصة وينقض على خصمه ليضرب ضربته القاضية.

ولقد رأى جورج سر التعلق العميق للعم منجو بالخمسة أو الستة الديوك الكبار التي تمتلئ أجسادها بالتدريب من آثار المعركة الوحشية التي خاضتها، وبصفة خاصة الديك الأعور، ولقد أومأ منجو برأسه إلى ذلك الديك قائلا:

- لقد خاض أشرس معركة شهدتها في حياتي، كان لا يزال في أوج شبابه منذ ثلاث أو أربع سنوات قبل قدومك، وكان السيد قد اشتراه من أحد الأغنياء في ولاية فرجينيا.. أعلنوا أنه ما لا يقل عن مائة ديك سوف تشترك في القتل، وأن المراهنات سوف تصل إلى عشرة آلاف دولار بالإضافة إلى المراهنات الجانبية. اختار سيدي لذلك الموسم عشرين ديكا، وضعناها في العربة إلى مكان القتال ونحن نطعمها وندلكها طوال الطريق لتكون مستعدة للمعركة فور وصولنا. كسبنا جولات قليلة وخسرنا الكثير، حتى جاء الدور على ذلك الديك.

اشتبك مع خصمه في أعنف معركة عرفتها حلبة مصارعة الديوك، وخرج ديكنا من المعركة عاريا من الريش، ولكنه كان قد أسكت خصمه إلى الأبد، وقد أعلن الحكام أن المعركة استمرت أربع عشرة دقيقة، كان الدم ينزف من الديك بغزارة، وكان المفروض أن يموت في نفس الليلة، ولكني ظللت ساهرا بجواره حتى تمكنت من إنقاذ حياته.

سكت العم منجو برهة ثم تابع حديثه قائلا:

- أمر آخر أحب أن أقوله لك يا بني، يجب أن تبذل أقصى ما في طاقتك لكي تنقذ هذه الطيور الجريحة، حتى تلك التي تنهي المعركة بسرعة وترفع رأسها صائحة، لا بد من فحصها جيدا، فقد تكون مصابة بجرح غائر، ما لم تفطن إليه وتعالجه بأسرع وقت، فقد يتقيح الجرح وتموت بعد يومين أو ثلاثة.

خيل لجورج أن العم منجو قد علمه آلاف الأشياء، ولكنه كان واثقا من أنه لا يزال هناك آلاف أخرى، ورغم أن جورج قد بذل أقصى الجهد لكي يعرف الطريقة التي يختار بها السيد والعم منجو الطيور التي يدفعونها إلى المعركة وتثبت أنها أكثر الديوك جرأة وشجاعة وقدرة على تحقيق النصر، إلا أنه أدرك أن أمامه الكثير مما يجب أن يتعلمه، وأن يتذرع بالصبر وقوة الملاحظة، وإن كان لاحظ بعد مضي بعض الوقت أن تلك الديكة تكون ذات أجنحة مستديرة كثيفة الريش ذات أرجل قصيرة غليظة قوية العضلات متباعدة.

كان العم منجو يوجه اللوم لجورج لأنه أصبح مشغوفا ببعض تلك الطيور إلى درجة أنسته غرائزها منذ كانت تعيش في الغابات، فقد كان بعضها يفلت من الصبي ليهاجم الديكة الكبار، ولولا سرعة تصرف العم منجو والإمساك بالديكة الصغار في الوقت المناسب لتعرضت للهلاك، كما حذره العجوز من الإفراط في العاطفة، ونصحه بتمالك أعصابه عندما يرى بعض الطيور تقتل في حلبة المصارعة، وكان قد لاحظ أن دموع الصبي تنهمر بغزارة كلما شاهد واحداً من الديكة التي أطعمها وشارك في تدريبها يسقط متخبطا في دمه.

وقال العم منجو:

- لا يستطيع إنسان أن يربح كل الجولات، لا أدري كم مرة أحتاج أن أكرر ذلك على مسامعك.

كما قرر منجو كذلك أن يجعل الصبي يدرك أنه لم يكن غافلا عن تحركاته خلال بضع الشهور الأخيرة وتسلله من المزرعة بعد هبوط الظلام وعودته مع أول خيوط الفجر.

كان العم منجو على ثقة من أن لذلك صلة بتلك المرة التي خرج فيها جورج مع السيد إلى الطاحونة حيث التقى بخادمة حسناء تدعى تشاريني تعمل في أحد البيوت الكبيرة في مزرعة قريبة، وقال منجو بلهجة ذات معنى:

- مع كل السنين التي قضيتها في هذا المكان أصبحت لي آذان وعيون

القطط التي ترى وتسمع كل شيء، وأود أن أخبرك أنني لا أحب التدخل في الشؤون الخاصة للآخرين، ولكن لا بد من أن أوجه نظرك إلى الحقيقة، أخشى أن يعثر عليك رجال الدوريات بالليل فيطلقون عليك النار، وإذا أفلت من رصاصهم فإنك لن تسلم من سوط السيد الذي سيمزق جسدك.

سكت منجو برهة ثم قال بصوت حنون:

- تلاحظ أنني لم أقل لك كف عن التسلل ولكنني أنصحك بالحذر.

وأجابه جورج بمذلة:

- نعم يا سيدي.

وخلال فترة أخرى من الصمت، جلس العم منجو على جذع شجرة وهو يحني جذعه قليلا إلى الأمام واضعا ساقا فوق ساق ويداه معقودتان على ركبتيه وقال:

- أيها الفتى أنا أيضا أذكر تلك الأيام البعيدة التي عرفت فيها الفتيات لأول مرة، كانت فتاة طويلة، كانت قد جاءت حديثا إلى المنطقة مع سيدها الذي اشترى مزرعة مجاورة.

سكت منجو برهة وابتسم ابتسامة شاحبة وهو يتابع حديثه قائلا:

- إنني أذكرها جيدا تلك الفتاة، كان الزنوج الكبار يطلقون عليها اسم الحية السوداء.

واسترسل العم منجو في ذكرياته وجورج يستمع إليه بإعجاب، لقد كان من الواضح أنه لم يقدر العم منجو حق تقديره من قبل.

بينما كان جورج متجها صباح أحد الأيام إلى محلة العبيد، فوجئ بأن أمه وبقية الآخرين لم يكونوا في انتظاره أمام أكواخهم كالعادة، واضطرب وهو يتخيل أن مكروها قد وقع، ولم يكد يقترب من باب كوخ أمه حتى بادرته هذه بفتح الباب ودفعه إلى الداخل وإغلاق الباب في هلع قائلة:

- هل رأيت السيد متجها إلى الكوخ؟

- كلا.. ماذا حدث؟

- يا إلهي، سمع السيد من أحد العبيد الأحرار في شارلستون ويدعى دنمارك قيس أن مئات من الزنوج كانوا يعدون العدة للانقضاض على البيض في هذه الليلة، كان المئات سيلقون حتفهم لو لم يتكلم دنمارك، وغادر السيد البيت غاضبا وهو يحمل بندقيته لحضور اجتماع.

توجهت كيزي نحو نافذة الكوخ الوحيدة وألقت نظرة على البيت الكبير ثم قالت:

- ليست السيدة واقفة في المكان الذي كانت تتلصص منه، ربما تكون قد رأتك قادما إلى الكوخ، لا بد من عودتك إلى مزرعة الدواجن في الحال.

- سوف أبقى هنا يا مامي.

كان يفكر أنه يستطيع أن يذكر سيده في مثل هذه الظروف من هو أبوه، ولكن كيزي عادت تقول بارتياع:

- أيها الأحمق! اخرج من هنا لو رآك السيد هنا فسوف تنفجر مراجل غضبه علينا، تسلل من خلال الأشجار وعد من حيث أتيت.

وقال جورج بعد برهة:

- حسنا يا مامي، سأعود ولكن من النفس الطريق التي جئت منها، إنني لم أؤذ أحدا.

عندما وصل جورج إلى مزرعة الدواجن وأنبأ العم منجو بما سمعه، فوجئ بالسيد راكبا جواده، ممسكا بالعنان في يد وفي اليد الأخرى بندقية، وكان الغضب باديا على وجهه وهو يوجه حديثه إلى جورج قائلا:

- لقد شاهدتك زوجتي، إذن فأنتم جميعا على علم بما حدث؟

قال جورج بوجل وهو يعلق البندقية:

- نعم يا سيدي.

فكر السيد في الترجل عن جواده ولكنه عدل عن الفكرة وعاد يقول بغضب:

- كان عدد كبير من البيض الطيبين سيلقون حتفهم الليلة لو لم يخبر

أحد العبد سيده بما سيحدث في الوقت المناسب، وهذا يثبت أن الإنسان لا يستطيع أن يثق فيكم معشر العبيد.

لوح السيد ببندقيته مهددا وهو يقول:

- لا يعرف الإنسان ما يدور داخل رؤوسكم، ولكني سوف ألهب رؤوسكم بالرصاص لو اشتممت بادرة غدر.

ظل منجو جامدا في مكانه بعد انصراف السيد، وعندما التقط أنفاسه قال:

- تعمل في خدمة الرجل الأبيض ألف سنة وتظل في نظره مجرد زنجي لا قيمة له.

اتجه منجو إلى كوخه قائلا لجورج:

- استمع إلي يا فتى! ربما تظن أن لك منزلة خاصة عند السيد، ولكن الأمر لا يختلف عندما يشعر البيض بالخوف ويدركهم الجنون، لا تكن أحمق وتحاول التسلل من المزرعة للذهاب إلى أي مكان في مثل هذه الظروف، هل تسمعني؟

صعد الدم إلى رأس جورج وهو يفكر في أن السيد لا يمكن أن يتصرف حياله بطريقة أخرى سوى أنه السيد، وأدرك في تلك اللحظة كم هو أمر مثير للغضب ولا طائل من تحته أن يفكر في أن السيد هو أبوه، كان يريد أن يتحدث مع أحد في هذا الشأن، ولكنه كان يعلم جيدا أن

واحدا من العبيد لا يستطيع أن يخوض في مثل هذا الحديث، ولم يكن يستطيع أن يناقش الموضوع مع أمه وقد شاهد بنفسه ندمها لتسرعها بإثارة ذلك الموضوع في لحظة غضب، وأعرب عن دهشته في مشاعر أمه نحو الموضوع الآن، وقد لاحظ أنها وسيده يعيشان كأن أحدهما لا يشعر بوجود الآخر، وأحس بالمهانة وهو يفكر في أن أمه كانت بالنسبة للسيد مثل تشاريني في وقت مضى وبيولا الآن، وفي العلاقات التي يمارسها عندما يتسلل للقائهما تحت جنح الظلام.

وتذكر جورج فجأة حادثة وقعت وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره، كان راقدا على السرير بجوار أمه عندما استيقظ فجأة على صوت حركة واهتزاز السرير، وفتح عينيه ليرى رجلا فوق أمه يعلو ويهبط، تجمد ساعتها من الرعب، وعندما سكتت الحركة شاهد الرجل يضع قطعة من النقود على المنضدة ثم يتسلل إلى الخارج، حبس جورج دموعه لما سمعه ورآه، ولكن الصورة كانت تقفز إلى ذاكرته كلما فتحت له الدولاب ورأى آنية زجاجية تضم نقودا تعلو بمقدار بوصة، وعندما بلغ العاشرة من عمره كانت الآنية تمتلئ بالنقود، لاحظ اختفاء الآنية كان على ثقة من أن أمه لم تشك في أنه يعرف الأمر، وعاهد نفسه أن يكتم عنها الخبر.

فكر جورج أن يحكي لتشاريني أنه ابن السيد الأبيض، وكانت تشاريني أقل منه سوادا وقالت بفخر أنها ابنة الملاحظ الأبيض في مزرعة للأرز بجنوب كاليفورنيا، وكانت بيولا على العكس شديدة السوداء كالفحم.

ولكن مشكلة اللون تراجعت أمام الأحداث التي تقع في شارلستون والتي كانت ولا بد أن تؤدي إلى تعطيل مشروعات جورج التي أدارها في أرسه زمنا طويلا، كان جورج في الواقع قد وصل منذ عامين إلى قرار، وفكر في أن يصارح العم منجو ولكنه عدل عن الفكرة طالما أن السيد لن يحبذ الفكرة، وخاصة وأن السيد سوف يستمر في غضبته بعض الوقت، ورغم أن السيد توقف عن حمل بندقيته بعد أسبوع، إلا أنه لم يتوقف يوما واحدا عن تفتيش أكواخ العبيد ومزرعة الدواجن.

لم يكن جورج يدرك مدى خطورة الأحداث التي وقعت في شارلستون إلا بعد أسبوعين عندما فكر في التسلل من المزرعة ليلا للالتقاء بإحدى الفتيات اللاتي يعرفهن، وقرر أن يخص تشاريني بالزيارة هذه المرة، انتظر حتى سمع شخير العم منجو، وتسلل من المزرعة إلى الصنوبر على مسيرة ساعة من المكان، ووقف في نفس المكان الذي اعتاد أن يلتقي فيه بالفتاة، وكرر المحاولة أربع مرات عندما شاهد تشاريني في النافذة تلوح له بشمعة موقدة، وأسرع إليها ليحتويها بين ذراعيه ولكنها دفعته قائلة:

- كم أنت أحمق، إن رجال الدوريات يطلقون النار على زنجي يخرج في الليل.

- دعينا نبقى داخل كوخك إذن.

- إنك تنصرف كما لو أنك لم تسمع شيئا عن التمرد؟

- أعرف أن تمردا وقع ولكن...

- دعني أحدثك عنه إذن، سمعت السيد والسيدة يقولان: زعيم المؤامرة نجار من العبيد المحررين اسمه قيس وأنه يقرأ الإنجيل، وقد ظل يخطط بضعة سنوات للثورة قبل أن يصرح بخطئه لأربعة من أصدقائه المقربين، واختار هؤلاء بضع مئات من العبيد السود والأحرار، كانت خطتهم تقضي بالخروج بعد منتصف الليل ليحرقوا بيوت البيض ويقتلوا كل من يرونه من السادة البيض، ولكن أحد العبيد أفشى السر لسيده في صبيحة يوم المؤامرة، وخرج البيض في ثورة عارمة وشنقوا ثلاثين من العبيد، وحرقوا بيوتهم، وأعلنوا كنائسهم قائلين: إنهم كانوا يعلمون فيها العبيد القراءة والكتابة.

حاول جورج أن يضم الفتاة ويقبلها ولكنها أبعدته قائلة بغضب:

- أو لم تكن تسمع إلى ما أقوله؟ يجب أن تعود إلى كوخك قبل أن يراك أحد وتتعرض للقتل.

تراجع جورج غاضبا وهو يقول:

- إنني ذاهب!

مشى جورج وهو يغلي في أعماقه وقد أحس بالندم، لأنه فكر في زيارة تشاريني، وكان الأفضل له أن يذهب إلى بيولا، ولكن الوقت قد أصبح متأخرا ولا مفر له من العودة إلى المزرعة.

قال جورج للعم منجو في الصباح:

- خرجت لأرى أمي في الليلة الماضية، وأخبرتني مس ماليزي بما سمعته من السيد والسيدة عن تلك الثورة.

ورغم عدم ثقة جورج من أن العجوز سوف يصدق قصته، مضى يروي له على لسان المس ماليزي ما سمعه من تشاريني، وعندما فرغ من قصته سأل:

- كيف يطلقون النار هنا على العبيد من أجل شيء حدث في جنوب، كارولينا يا عم منجو؟

- يخشى البيض دائما من أن تتحد كلمة الزنوج ويفكرون (فكر العم منجو برهة قبل أن يقول) في القيام بثورة جماعية، ولكن الزنوج لن يفعلوا شيئا متحدين

وسكت العجوز برهة ثم أردف يقول:

- ولكن غضبة البيض وقتلهم السود لن يستمر طويلا، سرعان ما تهدأ الأمور عندما يقتلون من السود ما يكفي لتهدئة أعصابهم المتوترة، ثم يسنون بعد ذلك كالعادة مزيدا من القوانين للتضييق من العبيد، وعندئذ يقل عدد دوريات الليل.

وسأل جورج بلهفة:

- كم يستغرق ذلك من الوقت؟

- حسنا، لا أجد عندي إجابة على هذا السؤال.

استغرق جورج في الصمت وقد قرر بينه وبين نفسه أن يؤجل الحديث مع العم منجو في فكرته حول المستقبل إلى أن يعود السيد لي إلى حالته الطبيعية.

خلال الشهرين التاليين، كان السيد لي قد بدأ يعود تدريجيا إلى سابق عهده، وقرر جورج ذات يوم أن الوقت قد حان ليصارح العم منجو فكرته وقال له:

- أيها العم منجو، لقد ظللت أدرس موضوعا معينا لفترة طويلة، إنني أعتقد أنني وقعت على فكرة جديدة تتيح لطيور السيد أن تحقق المزيد من الانتصارات في قتالها.

نظر العم منجو بارتياب إلى مساعده الذي بلغ في ذلك الوقت السابعة عشر من عمره وقد خيل إليه أنه أصيب بمسّ من الجنون، ولكن جورج استمر في حديثه قائلا بحماس:

- لقد ظللت أتابع باهتمام قتال الديوك خلال السنوات الخمس الماضية، ويخيل لي أنني لاحظت شيئا ما منذ عامين، يبدو أن لكل صاحب مجموعة من ديوك المصارعة خططه الخاصة.

أدار جورج بصره إلى الناحية الأخرى حتى لا يواجه عيني العم منجو مباشرة، وتابع حديثه قائلا:

- كنا ندرب طيور السيد لتكون قوية ذات نفس طويل حتى تتحمل الصراع لمدة طويلة، ولكنني لاحظت أن المرات التي كانت ديوكنا تخسر فيها المعركة، فإن السبب الرئيسي لأن ديوك الخصم تنجح في القفز أعلى مما تستطيعه ديوكنا وتنقض عليها من فوق، حيث تصيب الرأس، أعتقد يا عم منجو أن باستطاعتنا أن نزيد من قوة الأجنحة عن طريق التدريب، وإذا تحقق لنا ذلك فإن طيورنا تستطيع أن تقفز أعلى من خصومها وتربح جولات أكثر.

نظر العم منجو بإعجاب إلى مساعده الذي ولد بعد سنوات طويلة من ممارسته لتدريب الديوك المقاتلة، وقال:

- إنني أفهم ما تقصده، وأعتقد أن الفكرة جديرة بعرضها على السيد.

- هل تعتقد أنك تستطع أن نحبره بالأمر؟

- كلا، إنما أعني أن تطرح أنت عليه الفكرة.

تنهد جورج بارتياح لأن العم منجو لم يقابل فكرته بالسخرية، ولكن قلبه خفق باضطراب في تلك الليلة وهو راقد على عشبته يفكر في أنه سيتحدث مع السيد في ذلك الخاطر.

تشجع جورج صباح الأحد عندما رأى السيد يقترب من المزرعة، وأخذ نفسا طويلا قبل أن يكرر على مسامع السيد الفكرة التي عرضها على العم منجو، وأضاف إلى ذلك مزيدا من التفاصيل حول الأساليب المختلفة التي تتبعها ديوك القتال، وعدد له الطرق المختلفة التي شاهدها

في حلبة الصراع، وقال:

- لعلك لاحظت يا سيدي أن ديوك المستر جراهام تنقض على خصومها بسرعة وشراسة لتنهي المعركة في أقصر وقت، بينما ديوك المستر ماك جورج تحاور وتناور وتعتمد على الفرص السانحة، أما ديوك الكابتن بيودي فتعتمد على قوة ضربات المخالب.

تحاشى جورج أن ينظر في وجه سيده وهو يتابع حديثه قائلا:

- لو أنك وافقت يا سيدي على أن يبذل العم منجو جهدا خاصا في تقوية أجنحة طيورنا عن طريق التدريب، فإنني أعتقد أنها سوف تكون أكثر قدرة على الارتفاع فوق خصومها والانقضاض على رؤوسها لتنهي المعركة لصالحها.

كان السيد يحملق في وجه جورج وكأنه يراه للمرة الأولى، ولقد ظل فترات طويلة خلال الشهور الماضية وقبل أن يبدأ موسم القتال الجديد يشارك العم منجو وجورج في تدريب الطيور بدفعها إلى أعلى وتمرينها على القفز ثم هبوطها وهي ترفرف بأجنحتها في قوة، وبدأت أجنحة الطيور تزداد قوة مع مرور الأيام.

وكما تنبأ جورج، افتتح موسم قتال الديوك في عام ١٨٢٣، وحققت ديوك المستر لي نسبة أعلى من الانتصارات بالنسبة للسنوات السابقة، فقد تمكنت في ذلك العام من إصابة ٣٩ ديكا من ديوك الخصوم إصابات قاتلة من بين ٥٣ ديكا شاركت في القتال خلال ذلك

الموسم. جاء المستر لي بعد أسبوع إلى مزرعة الدواجن وهو في حالة طيبة ليقف على حالة الديوك التي أصيبت في معارك الموسم الأخير، وقال له العم منجو مشيرا إلى أحد الأقفاص:

- لا أعتقد أن هذا الديك سوف يعمر طويلا.

هز السيد رأسه علامة الموافقة، وأشار العم منجو إلى بعض الأقفاص الأخرى قائلا:

- ولكني أعتقد أن هذين الطائرين سوف يشفيان ويتمكنان من استئناف القتال في الموسم القادم.

عبر السيد عن ارتياحه، وقبل أن يغادر المكان التفت نحو جورج قائلا:

- إنك تتسلل كثيرا من المزرعة أثناء الليل جريا وراء الفتيات، من الأفضل أن تكون حذرا من ذلك الزنجي الذي يجري وراء نفس الفتاة.

صعد الدم إلى رأس جورج وهو يتخيل أن العم منجو أفشى سره ولكن العم منجو نفسه كان أكثر منه دهشة عندما استأنف السيد حديثه قائلا:

- أخبرت المسز تيج، زوجتي عند التقائهما في النادي أنها لم تكن تدري ماذا أصاب خادمتها إلا عندما سمعت الخبر من بعض العبيد

في المزرعة، وقد أخبروها أن الفتاة شوهدت معك أكثر من مرة، كما شوهدت بصحبة ذلك الزنجي الآخر الذي يكبرك سنا.

ضحك السيد عاليا وهو يضيف إلى ذلك قوله:

- أعتقد أن التقاءكما بتلك الفتاة قد مزق جسدها تمزيقا!

أحس جورج بخناجر تمزق جسده وهو يفكر في أن تشاريتي تخونه مع آخر، وتذكر تلك الليلة التي أصرت فيها على أن يعود أدراجه، وخيل إليه أنها فعلت ذلك لأن، الآخر كان مختبئا داخل الكوخ.

وعندما أصبح جورج وحده داخل كوخه، انفجرت مراجل غضبه وأخذ يصب للعنات على تشاريتي وأقسم أن يتحول إلى بيولا الأكثر إخلاصا، كما اتجه تفكيره إلى أوفيليا، تلك الفتاة الملونة التي التقى بها في الغابة في إحدى الليالي، وعلم أنها مملوكة للسيد جريبت، أحد الأثرياء الذي يمتلك مزرعة لديوك القتال لا يقل عددها عن الألف والذي تمتلك أسرته مزارع ضخمة في جورجيا وجنوب كارولينا فضلا عن مزرعة في كازويل. فكر جورج في أن تلك الفتاة قد تكون أصلح له، وفكر كذلك في أن السيد جبريت قد لا يكون على علم بأنه سيد تلك الفتاة.

الفصل الرابع

في صباح يوم الأحد الذي كان صباحه مميزاً وجميلاً عن غيره من الأيام اقترب جورج من محلة العبيد في زيارته الأسبوعية عندما قدم السيد إلى مزرعة الدواجن ليفحص الديوك، وقال له منجو كأنما خطرت الفكرة على باله في تلك اللحظة.

- سيدي، أنت تعلم أننا نستبعد في كل موسم بضع عشرات من الديوك باعتبارها من النفايات التي لا تصلح للقتال، لكنني أعتقد أنك تستطيع أن تحقق بعض الأرباح الإضافية لو أنك عهدت إلى ذلك الصبي بالاشتراك ببعض تلك الديوك في صراع الديكة من الدرجة الثانية فبعضها يفضل الديوك التي تشترك في الدرجة الأولى.

كان العم منجو يعلم أن اسم «توم لي« يمثل في طول إقليم كازويل وعرضه أسطورة الرجل الفقير الذي دخل مجال المراهنة على ديوك القتال وهو يحمل ديكا واحدا تحت إبطه، وكم من مرة حدثه السيد عن تلك الأيام باعتزاز وكيف ارتقى خلال بضع سنوات سلم الثراء ليصبح من أشهر وأغنى أصحاب الديوك المصارعة، ولكنه لم ينس صراع ديوك الفقراء الذين يملك الواحد منهم ديكا أو ديكين من الدرجة الثالثة من ديوك المصارعة، وهؤلاء من البيض الفقراء أو طبقة العبيد الأحرار أو العبيد، والذين يدخلون حلبة الصراع بمراهنات تتراوح بين خمسين سنتا ودولار واحد، وقد يركب بعضهم رأسه ويراهن بعشرين دولاراً هي كل ما

يملكه من حطام الحياة.

وسأل المستر لي:

- ما الذي يجعلك تعتقد أن ذلك الفتى قادر على ممارسة صراع الديكة؟

أحس العم منجو بالارتياح لأن السيد لم يرفض الفكرة من أساسها وقال:

- حسنا يا سيدي، لقد شاهدت بنفسك كيف يتابع الفتى القتال باهتمام زائد، إنه لم يغفل خلال السنوات الخمس أو الست الماضية حركة واحدة، وإذا أضفنا إلى شغفه بالدواجن كأنه ولد بينها، فإنه مع قليل من التوجيه والتدريب قادر على الفوز، ومع افتراض الخسارة فلن نخسر سوى الطيور المستغني عنها.

هزّ السيد رأسه قائلا:

- نعم.. لا أرى خطأ في ذلك، عليك أن تدربه خلال هذا الصيف، وسوف أمنحه بعض المال للمراهنة على الديوك التي لا نحتاج إليها.

ابتسم العم منجو ابتسامة عريضة، لأنه كان في الواقع كان يساعد جورج في التدريب على قتال ديوك الدرجة الثانية من حيث لا يراهما السيد في فترات الراحة، وكان على ثقة من أن الفتى قطع شوطا بعيداً في ذلك المجال بحيث يستطيع في الحلبة أن يفوز على منافسيه بسهولة.

وعندما التقى العم منجو بجورج بعد ظهر ذلك اليوم قابله بابتسامة مشرقة وقال:

- حسنا يا فتى، سوف تفتح فمك من الدهشة عندما أنقل إليك الخبر السار..

وعندما أنبأه بالحديث الذي دار بينه وبين السيد، عقدت الدهشة لسان جورج ولم يجد ما يقوله، وعندما استعاد هدوء أعصابه قال:

- إنني لا أدري كيف أشكرك.

- بدلا من أن تقف جامدا كالتمثال، الأفضل أن تبدأ العمل من الآن.

ومنذ ذلك اليوم ظل جورج والعم منجو يمضيان ساعة على الأقل بعد ظهر كل يوم في تدريب الديكة التي سوف يعهد بها إلى جورج بالمراهنة عليها في قتال ديوك الصف الثاني، وقد أقاما لذلك الغرض حفرة للقتال أقل اتساعا من الحفرة الحقيقية وأكثر عمقا، وجاء السيد بنفسه بعد بضع أسابيع من بدء التدريب ليشاهد جانبا من التدريب، وقد ابتهج أشد الابتهاج لما رآه من يقظة جورج في حلبة الصراع وسرعة استجابته للموقف، وأعطى لجورج بعض التعليمات الإضافية، قائلا:

- أنت تريد من طائرك أن يتحفز للوثوب، لاحظ جيدا ما سوف أفعله.

أخذ من منجو الطائر وقال:

- حسنا.. سوف يصيح الحكم في الحلبة استعدادا، بينما تكون جالسا

على الأرض ممسكا بطائرك، لا تلق بالا للطائر ولكن ركز عينيه على شفتي الحكم، وعندما ترى شفتيه تنطقان، ابدأ.. عليك أن تترك طائرك في نفس اللحظة ليكون البادئ بالهجوم.

وبعد أن يفرغا من التدريب بعد الظهر كان العم منجو يحكي لجورج ما يمكن أن يحققه من أرباح في قتال ديكة الصف الثاني، وقال له ذات مرة:

- لقد شاهدت بعض الزنوج في قتل هذه الديوك يحققون أرباحا تصل إلى عشرة أو اثنتي عشر دولارا وربما أكثر.

وقال جورج:

- لم أمتلك في حياتي دولارا واحدا يا عم منجو!

- أنا كذلك لم أمتلك منها الكثير، ولا أظن أنني سوف أحتاج إلى مزيد من الدولارات، وعندما تربح بعض الدولارات، فسوف يترك لك السيد بعضها.

- هل تعتقد أنه سوف يفعل ذلك؟

- أتوقع ذلك خاصة بعد فكرة تقوية الأجنحة التي عادت عليه ببعض الأرباح، وإذا حدث ذلك فإنني أنصحك بتوفير ما تحققه من الربح.

- سوف أفعل ذلك، سوف أفعل بلا شك.

- لقد سمعت عن زنوج ربحوا ووفروا المال اللازم لشراء حريتهم من

ساداتهم.

- سوف أوفر ما يكفي لشراء حريتي وحرية أمي!

دبت الغيرة في قلب الرجل العجوز، ونهض من مكانه دون أن يقول شيئا، ثم قال وكأنهما يهمس لنفسه:

- حسنا، لا يوجد شيء مستحيل!

وانسحب العم منجو إلى كوخه تاركا جورج وحده في حيرة مما اعترى العجوز.

وخلال موسم ١٨٢٣ سمع العم منجو وهو بصحبة السيد في الصراع الرئيسي للديوك من أحد المدربين القدامى أن قتالا جانبيا لديوك الصف الثاني سوف يقام بعد ظهر السبت القادم خلف مخزن المحصولات في إحدى المزارع، وفي صباح ذلك السبت جاء السيد حسب الموعد الذي قطعه على نفسه وسلم العم منجو عشرين دولارا بين أوراق من فئة الدولار وقطع من النقود الصغيرة قائلا:

- أنت تعرف سياستي جيدا، لا تدفع إلى الحلقة بطائر تخشى من المراهنة عليه، وإذا لم تراهن بشيء فلن تربح شيئا! إنني على استعداد لتحمل أي خسارة، ولكنني أنا الذي أعطيكم الديوك وأغامر بمالي، لهذا سوف أحصل على نصف الأرباح، هل تفهم هذا؟ وإذا داخلني الإحساس بأنكم تسيئون استخدام نقودي فسوف أستخلصها من جلودكم السوداء.

وأجاب العم منجو بخضوع:

- نعم يا سيدي!

عندما وصل جورج إلى حلقة الصراع كانت دقات قلبه تزداد عنفا، وشاهد ما يقرب من العشرين زنجيا من أصحاب ديوك القتال وهم يضحكون ويضجون، وقد تعرف من بينهم على عدد ممن كانوا يصحبون سادتهم في القتال الرئيسي، ولوح لهم بيده ورد على ابتسامتهم، كما قام بتحية بعض البيض من الفقراء وهو يسمع بعضهم يهمس:

- هذان الاثنان من عبيد توم لي.

سرعان ما بدأ البيض والسود يخرجون من غراراتهم الديوك التي جاءوا بها، وشاهد جورج العم منجو يتجه إلى حكم متورد الوجه ويهمس في أذنه بشيء، ثم شاهد الحكم ينظر إليه ويهز رأسه.

كان جورج مشغولا بتدليك الديك عندما عاد منجو وبدأ يدلك الديك الثاني، وأحس جورج بشيء من الرهبة وهو يجد نفسه أكثر اقترابا من أي مرة سابقة من الرجال البيض الفقراء الذين كان وجودهم يعني بعض المتاعب بالنسبة للسود، ولكنه تذكر ما قاله منجو وهما في طريقهما إلى الحلبة:

- إن قتال ديوك الصف الثاني هو العمل الوحيد الذي يشترك فيه فقراء البيض مع الزنوج، وكانت القاعدة تقضي بأن يدور الصراع بين اثنين من البيض أو اثنين من السود، ولكن أي واحد يستطيع أن يراهن على

أي ديك في أي قتال.

فرغ جورج من تدليك طائره بعناية وأعاده إلى غراراته وشاهد مزيدا من أصحاب الديوك يتقاطرون إلى المكان في الوقت الذي لوح فيه الحكم بيديه قائلا:

- حسنا.. فلنبدأ قتال هذه الطيور الآن.. جيم كارتر وبين سبنس تقدما إلى الحلقة.

تقدم رجلان نحيلان من البيض يرتديان ملابس مهلهلة وتمت عملية الوزن ثم بدأت المراهنات على الديكين بين خمسة وعشرين سنتا وخمسين سنتا، ونظر جورج إلى الديكين بازدراء، فلم يكن أحدهما جديرا بالمقارنة بأي من ديكي الصف الثاني الذين أتينا بهما إلى الحلبة.

وعندما أعطى الحكم إشارة البدء واقتتل الديكان لم يشعر جورج بمثل الحماس الذي كان يشعر به وهو يتابع قتال الديكة مع سيده، كان الديكان يتقاتلان بالطريقة التقليدية وهما يقفزان ويتراجعان، ومضت فترة طويلة قبل أن يصيب أحدهما خصمه في عنقه، ومرت بضع دقائق أخرى قبل أن يقضي على خصمه في حين كانت الديوك الأخرى تحتاج إلى بضع ثوان لإتمام المهمة، وشاهد صاحب الديك المصروع يحمل طائره من رجليه وينسحب من الساحة وهو يسب ويلعن حظه المنكود، وتابع جورج المعركة الثانية والثالثة دون أن يجد روح القتال أو الأسلوب الذي يرضيه، وعندما سمع الحكم يقول:

- الدور الآن على عبد المستر رومز بديكه الرمادي المخطط، وعبد المستر لي بديكه الأحمر

وعندما شاهد جورج خصمه تذكره، فقد التقيا أكثر من مرة في القتال الرئيسي للديوك الذي كان يحضره كل منهما مع سيده في المراسم السابقة، وعندما دخل جورج بديكه إلى الحلبة وأمسك طائره في وضع الاستعداد، وتذكر نصائح العم منجو لا تمسك طائرك بإحكام فتتصلب أرجله عندما تحين لحظة القتال، ولا تمسكه بتراخ حتى لا يفلت منك، وسمع جورج الصيحات تتعالى من حوله، خمسون سنتاً على الديك الأحمر، دولار على الرمادي، فلما سمع صوت العم منجو يدوي قائلا :

- أربعة على الأحمر!

عندما أعطى الحكم إشارة البدء كان جورج في غمرة انفعاله قد نسي أن يركز عينيه على شفتي الحكم، ولهذا كان ديك الخصم أسرع في الانقضاض، واختل توازن طائره ولكن سرعان ما استعاد توازنه وتحفز للهجوم، ولكن الديك الرمادي قفز عاليا واستطاع أن يوجه بمنقاره طعنة حادة في عنق الديك الأحمر الذي تفجر منه الدم بغزارة، وأدرك جورج أن طائره يزداد ضعفا مع كل قطرة تنزف منه، ولكنه قاتل بشجاعة، وفجأة قفز الديك الرمادي منشبا مخالبه في الديك الأحمر ليسقط جثة هامدة، ولم يعبأ جورج بصيحات الفائزين والخاسرين وهو يحمل ديكه المقتول، ولم يكد يتخطى الجموع المحتشدة حتى أطلق لدموعه العنان، وأمسكه العم منجو بخشونة من ذراعه ودفعه إلى حيث لا يراهما أحد

وقال له:

- إنك تتصرف كالحمقى، اذهب وأحضر الديك الآخر واستعد للجولة الثانية!

- إنني لا أصلح لهذا العمل، لقد تسببت في مصرع ديك السيد

وقال العم منجو مشدوها:

- في كل مرة تتقاتل فيها الديكة فلا بد أن يخسر أحدهما، ألم تر بعينيك السيد يخسر أكثر من مرة؟ هيا إلى الحلبة.

وأمام وعود العم منجو وتهديداته قال الفتى من بين دموعه:

- حسنا.. لن أعود لأقول للسيد: إننا خشينا أن نسترد له النقود التي خسرناها.

استدار العم منجو نحو الجمهور غاضبا، وأحس جورج بمهانة، ولكنه دهش عندما لاحظ أن أحدا لما يفطن لما حدث منه، وتابع جولتين من القتال قبل أن يقول الحكم:

- الدور على عبد المستر لي.

وشعر بمزيد من الخجل عندما سمع العم منجو يراهن عليه بعشرة دولارات، واستطاع ديك جورج أن ينتصر على خصمه في المرة بعد أقل من دقيقتين.

وفي طريق عودتهما حاول العم منجو أن يخفف عن الفتى فقال له:

- لقد ربحنا دولارين، لماذا تبدو متجهما كان أحدا يموت.

- أحس بالخجل لأن طائرا قد قتل، لا أظن أن السيد يحب في المستقبل أن يقتل المزيد من طيوره.

ظل جورج مضطربا طوال الأيام الثلاثة التالية وهو يتجنب الحديث مع منجو ويتمنى لو أن الأرض تنشق وتبلعه، ووحد العجوز نفسه مضطرا إلى مفاتحة السيد في الأمر قائلا له:

- ربما كان من الأفضل أن تحدثه بنفسك يا سيدي، يبدو أن الفتى يعتقد أنه من المهانة أن يخسر معركة!

وفي زيارة السيد التالية للمزرعة نادى جورج قائلا له:

- ما هذا الذي أسمعه من أنك لا تستطيع أن تتحمل خسارة جولة؟

- سيدي، يداخلني شعور رهيب للتفكير في أن الديك قد لقي مصرعه!

- حسنا.. لدي عشرون طائرا آخر أريد منك أن تقاتل بهم.

- نعم يا سيدي.

عندما فاز جورج بالطائرين في المعركة التالية ظل يقفز في الهواء وهو يصيح كالمجنون، وعندما تسلم أرباحه أخذه العم منجو جانبا وهمس في أذنه:

- تمالك نفسك فأنت عرضة للخسارة في المرة التالية.

- دعني أمسك بكل تلك النقود بين قبضة أصابعي.

وفي طريق عودتهما إلى المزرعة، حاول جورج ربما للمرة المائة أن يقنع العم منجو بالذهاب إلى محلة العبيد لمقابلة أمه والمستر ماليزي والأخت سارا والعم بومبي، وقال:

- لا يملك السيد من العبيد سوانا نحن الستة، وربما كان من المناسب أن يعرف أحدنا الآخر جيدا، إنهم يودون أن يلتقوا بك، لقد كنت أحدثهم عنك في كل زيارة، وهم يشعرون بأنك لا تحبهم.

وأجابه العم منجو بحرارة:

- يجب أن تعلم أنت وهم أنني لا أشعر بالكراهية نحو أحد، فلتستمر الأمور على ما هي عليه كل منا وشأنه.

وعندما وصلا إلى المزرعة، تعهد العم منجو أن يختار المسير من أبعد الطرق عن محلة العبيد، واتسعت حدقتا كيزي وهي ترى تلك الكمية من النقود في يد ابنها قائلة بدهشة:

- يا إلهي! من أين حصلت على كل تلك النقود؟

نادت الأخت سارا التي سألته بدهشة:

- كم عدد هذه النقود على أي حال؟

- لا أدري يا سيدتي، ولكني أنتظر الحصول على المزيد.

جذبت الأخت سارا جورج من يده الطليقة ليرى العم بومبي النقود في يده الأخرى، وقال العم بومبي:

- أعتقد أنه من الأفضل لي أن أحصل على ديك، ولكن هذا المال يخص السيد.

وقال جورج مفاخرا:

- سوف يعطيني نصف الأرباح، أنا ذاهب إليه الآن لأسلمه حصته.

أعلن جورج عن قدومه للمس ماليزي في المطبخ وأراها النقود ثم سأل عن السيد، وضحك السيد بمرح بعد أن وضع النقود في جيبه قائلا:

- يا للجحيم! يبدو أن منجو لا يسلمك النفايات وإنما يعطيك أفضل ما لدي من الطيور.

استطاع جورج أن يفوز بالديكين في المعركة التالية، وعندما سمع السيد الخبر قبل أول مرة أن يحضر العرض التالي للقتال بين ديوك الصف الثاني وكان يستنكف أن يفعل ذلك من قبل، وكان حضوره غير المتوقع مثار دهشة بين صفوف البيض والسود على السواء، وعندما أحس السيد بالاضطراب الذي تسبب فيه وجوده أراد أن يخفف حدة الموقف، فمضى يحيى الحاضرين ويلوح لهم بيده قائلا:

- كيف حالك يا جيم!

وعندما لمح رجلا آخر بادره بقوله: مر في بيتي، وقال لثالث:

- ماذا حدث لك يا ديث! أرى أن زوجتك أسقطت ما تبقى من أسنانك أم لعل ذلك نتيجة شرب الويسكي الرديء!

وانفجر الجميع ضاحكين وهم يلتفون حول الرجل الذي بدأ فقيرا مثلهم ثم تحول إلى أسطورة يتندرون بها.

امتلأ جورج فخرا وهو يحمل طائره تحت إبطه، وبين دهشة العم منجو والسيد لي اتجه الفتى نحو حافة حلبة القتال وهو يصيح:

- حسنا! حسنا! كل من لديه نقود فليراهن بها، لا يهمني بكم تراهنون، إذا لم أستطع أن أغطي قيمة الرهان فإن سيدي الغني سوف يفعل.

عندما لمح جورج سيده يضحك عاد يصيح بصوت أعلى:

- هذا جرد طائر من طيور النفاية التي يمتلكها سيدي ومع هذا فسوف يهزم أي منافس.. هيا تقدموا!

بعد ساعة كان جورج قد حقق الفوز الثاني وبلغ نصيبه من الربح اثنان وعشرون دولارا في حين حصل سيده على أربعين لقبوله بعض الرهانات الجانبية التي فرضت عليه، وكان يكره في الواقع أن يربح نقود بعض الرجال الذين يعتبرونه أشد فقرا منه عندما بدأ يدخل هذه الحلبة، ولكنه كان يعلم أنهم سوف يخرجون ليفاخروا طوال العام بأنهم راهنوا توم

لي وخسروا أمامه أضعاف ما خسروه بالفعل.

تغيب جورج عن حضور أربع جولات للقتال في الأسابيع التالية عندما انتابت العم منجو نوبات من السعال الشديد المفاجئ، ولم يشأ أن يتركه وحده، وحتى عندما تحسنت صحة العجوز بعض الشيء، قال:

- إن صحته لا تمكنه من الذهاب إلى حلبة الصراع

وطلب من جورج أن يذهب وحده قائلا:

- إنك لم تعد طفلا، ومع هذا فإنك كنت تسارع بالذهاب لو أن الرحلة كانت للقاء الفتيات!

هكذا ذهب جورج وحده حاملا في كل يد غرارة بها ديك مقاتل، وعندما ظهر في الساحة قوبل بعاصفة من الصياح والترحيب بعد غياب طويل، وصاح أحدهم قائلا:

- انظروا، ها جاء ذلك الـ ... تشيكين جورج (يعني الفروج أو الكتكوت جورج)

مما أثار عاصفة من الضحك، ووجم جورج برهة ثم شارك الآخرين الضحك.

وبينما كان جورج في طريق عودته حاملا في جيبه المزيد من النقود، كان لا يزال يفكر في ذلك الاسم الذي أطلقوه عليه في ساحة القتال، وأحس لذلك الاسم بطعم غريب. وعندما وصل إلى محلة العبيد

قال لمستقبليه:

- أراهن أنكم لا تستطيعون أن تخمنوا الاسم الذي أطلقوه عليَّ في حلبة المصارعة؟

- كلا.. ما هو الاسم؟

- تشيكين جورج!

وصاحت الأخت سارا بدهشة: "يا إلهي!"

أعجب الجميع باللقب الجديد، حتى السيد لي نفسه ضحك مسرورا عندما أخبره به العم، وقال العم منجو:

- إنني لأعجب لماذا يسموه جورج الباكي! وهو يبكي في كل مرة يفقد فيها أحد الديكة كما لو أنه فقد ابنا من أبنائه، هل سمعت عن شيء كهذا من قبل يا سيدي؟

ضحك السيد بشدة، وهو يقول:

- كم من مرة شعرت فيها بالرغبة في البكاء وأنا أفقد واحدا من طيوري، ولكنه أول واحد من طرازه أسمعه يفعل مما تقوله، أعتقد أنه أصبح مولعا أشد الولع بتلك الطيور.

لم يمض على ذلك وقت طويل، وبينما كان السيد لي في طريق عودته بعد حضور أكبر صراع للديكة ذلك العام استطاع أن يحقق فيه نصرا كبيرا، عندما سمع صوت يناديه: "اده.. مستر لي!"

المنادي هو جورج جيويت الأرستقراطي وكان يتجه ناحيته باسما، وقال المستر لي:

- أوه.. نعم يا مستر جيويت.

عندما فرغ من مصافحته باليد، قال المستر جيويت:

- مستر لي، سوف أكون صريحا معك كما تحدث صاحب ديكة للقتال مع زميل، لقد فقدت أخيرا مدرب ديوكي، شاهدته إحدى الدوريات يتجول أثناء الليل وأطلقوا عليه وأصابوه إصابة خطرة..

- يؤسفني أن أسمع ذلك.

- لهذا تجدني في حاجة ماسة إلى مدرب مؤقت، أعني واحداً لديه فكرة عن تلك الطيور.

تردد المستر جيويت برهة ثم أردف يقول:

- لقد لاحظت أثناء قتال الديكة أن لديك مدربين، بالطبع لا أستطيع أن أطلب منك الاستعانة بالمدرب العجوز صاحب الخبرة الواسعة، ولكنني فكرت في أنك ربما توافق على عرضي بالنسبة للشاب الآخر، يقول عنه عبيدي أنه...

هز المستر لي رأسه في دهشة ظنا منه أن ما سمعه يعتبر دليلا على خيانة تشكين جورج، ومضى المستر جيويت يقول:

- دعني أبرهن لك على أنني أريد أن أساوم.. ما رأيك في ثلاثة آلاف؟

دهش المستر لي دهشة بالغة وخيل إليه أنه لم يسمع الرقم جيداً، وأجاب قائلا:

- إنني آسف يا مستر جيويت.

- حسنا.. أربعة آلاف.. هذا عرض نهائي.

- ولكن المسألة أنني لا أبيع مدربي يا مستر جيويت.

بوغت المستر جيويت وقال بمرارة:

- إنني أقدر موقفك بالطبع.. طاب يومك يا سيدي!

- طاب يومك يا سيدي.

عاد المستر لي إلى عربته يغلي من أعماقه، وعندما رآه جورج والعم منجو على تلك الحال أصيبا بالوجوم، ولوح السيد بقبضة يده في وجه جورج قائلا بحدة:

- سوف أحطم رأسك! ما الذي تفعله بحق الجحيم عند جيويت؟ وماذا قلت له بشأن تدريب الطيور؟

امتقع وجه تشيكين جورج وقال باضطراب:

- لم أقل شيئا للمستر جيويت يا سيدي.

تلعثم جورج ثم عاد يقول:

- لم أقل كلمة واحدة، لم أقل له شيئا بالمرة يا سيدي.

وعاد السيد يقول بانفعال:

- هل تريد أن تقول أنك لا تذهب إلا سعيا وراء العاهرات في مزرعته؟

- الرحمة يا سيدي.. الرحمة.

صعد السيد إلى المقعد الأمامي وصاح في وجه العم منجو بخشونة قبل أن يقود العربة، وخيم الصمت طوال الرحلة، ومضى جورج تلك الليلة ساهرا لا يعرف النوم طريقه إلى جفونه وهو يفكر في العقاب الذي ينتظره في صباح الغد، ولكن شيئا ما كان يخشاه لم يحدث، وبعد بضع أيام قال السيد للعم منجو:

- سوف يقام الصراع القادم في ولاية فرجينيا، أعلم أن صحتك لن تساعدك في الأسبوع القادم على قطع هذه الرحلة الطويلة وأنت تشكو من السعال المتواصل، لذا فسوف أصطحب الفتى في هذه الرحلة.

- كما ترى يا سيدي.

كان العم منجو يتوقع أن يجيء ذلك اليوم، لهذا السبب كان يدرب الفتى ليحل محله، ولكنه لم يكن يحلم أن يجيء ذلك اليوم بسرعة.

الفصل الخامس

نظر السيد بتعجب قائلاً:

- لماذا أنت مستغرق في التفكير هكذا يا صغيري؟!

فوجئ تشيكين جورج بسؤال السيد لي وهما يركبان العربة بعد مسيرة في صمت ذات يوم دافئ في شهر فبراير، وأجاب باضطراب:

- لا شيء.. لم أكن أفكر في شيء يا سيدي.
- يحاول الإنسان أن يتحدث معكم بلطف وتتصرفون بغباء.. أنتم معشر الزنوج تدفعون المرء إلى الجنون، ألا تعتقد أن البيض يحترمونك أكثر لو أنك كنت أكثر تعقلا؟

شحذ تشيكين جورج ذهنه وتردد قبل أن يجيب قائلا:

- ربما.. ولكن الأمر يتوقف على..
- ها أنت تعود للف والدوران.. يتوقف على أي شيء؟
- حسنا يا سيدي... يتوقف الأمر على ما يقوله لك السادة البيض.

بصق السيد لي باستياء من جانب العربة وقال:

- أطعم الزنجي وأعطه الملابس وابن له سقفا فوق رأسه.. أعطه كل ما يحتاج إليه في الدنيا، ومع هذا لن يعطيك هذا الزنجي! إجابة شافية!

فكر تشيكين جورج أن السيد يريد أن يفتح موضوعا خاصا للحديث لمجرد أن يقطع ملل الرحلة، وحتى يهدئ من ثائرة السيد لي، أراد أن يختبر الأمر فقال:

- أنت تريد الحقيقة المجردة يا سيدي.. كان بوسع معظم الزنوج أن يتصرفوا بطريقة أفضل لولا أنهم يخشون السادة البيض.

- يخشونهم! الزنوج يلدغونهم كالحيات.. هؤلاء الزنوج الخائفون هم الذين يدبرون المؤامرات لقتلنا في أية لحظة ندير لهم ظهورنا.. يسممون طعامنا ويقتلون أطفالنا.. كان الزنوج يفعلون ذلك طوال الوقت ونحن معشر البيض ندافع عن أنفسنا، ويدعي الزنوج أنهم مذعورون!

رأى تشيكين جورج أن يتجنب الجدل مع السيد الغاضب وقال بهدوء:

- لا أعتقد أن واحداً من رجالك فكر قط في أن يقدم على عمل من تلك الأعمال.

- تعلمون أيها الزنوج أنني أقتلكم لو أنكم فكرتم في ذلك.

صاح أحد الديوك في قفصه فجاوبته بقية الديوك، وعندما هدأت الضجة عاد السيد لي يقول:

- إنني أشعر بالغثيان عندما أفكر كم يحيل الزنوج حياة الرجل الأبيض

إلى جحيم بينما هو يحاول أن يبني لنفسه شيئا.

استأنفت العربة سيرها في هدوء بعض الوقت، ولكن تشيكين جورج كان يشعر في أعماقه أن غضب السيد يتصاعد، واستأنف السيد لي حديثه قائلا:

- أيها الفتى.. دعني أقول لك شيئا.. لقد عشت طوال حياتك في بيتي ومعدتك مملوءة.. إنك لا تعرف شيئا عن طعم الحياة وأنت تشقى وتكاد تموت من الجوع مع عشرة من الإخوة والأخوات وأب وأم تعيشون جميعا في غرفتين خربتين!

أدهش تشيكين جورج أن يسمع هذا الاعتراف من سيده الذي مضى يجتر ذكرياته المريرة قائلا:

- أيها الفتى.. لا أستطيع أذكر متى امتلأت أحشاء أمي بجنين آخر وأبي يلوك التبغ وهو نصف مخمور بينما يوجه لنا السباب ويتهمنا بأننا لا نؤدي عملنا على الوجه المناسب في عشرة أفدنة من الأرض الصخرية التي أدفع فيها خمسين سنتا للفدان بينما كان أبي يسمي نفسه مزارعا!

حدق السيد في وجه تشيكين جورج وقال غاضبا:

- هل تريد أن تعرف ما الذي غير حياتي؟

- نعم يا سيدي.

- جاء الإيمان الشافي، كان يطوفون حول الخيمة الكبيرة التي نصبت في المكان، وفي ليلة الافتتاح جاء كل من يستطيع أن يمشي على رجليه، وجاء البعض الآخر محمولا، فيما بعد قال الناس أنهم لم يسمعوا في حياتهم مثل تلك الموعظة في إقليم كازديل.. لا أنسى في حياتي منظر الرجال البيض وهم ينصرفون ويصيحون وهم يعانقون بعضهم بعضا.. وفي وسط ذلك الضجيج أصابني شيء من أعماقي.. هل تعرف شيئا عن الإنجيل؟

- كلا.. ليس بالقدر الذي أستطيع أن أتحدث عنه.

- تستطيع أن تراهن على أنني أنا أيضا لم أكن أعرف شيئا، كانت الكلمات من المزامير، لقد وضعت علامة على مكانها في الإنجيل الذي أقتنيه..تقول الكلمات: لقد كنت صغيرا وأنا الآن عجوزا، ومع هذا فلم أهتد إلى الطريق المستقيم ولا رأيت البذرة وهي تنبت.

سكت السيد برهة ثم أردف يقول:

- ظلت الكلمات عالقة في ذهني فترة طويلة بعد انصراف الواعظ.. أظللت أقلب الكلمات في رأسي لم يكن يعني سوى استجداء الخبز.. لم نكن نملك شيئا ولم يكن بوسعنا أن نمتلك أي شيء، وأخيراً بدا لي أن تلك الكلمات تعني لو أنني سلكت الطريق القويم، أو كلمات أخرى لو أنني اشتغلت بجد وسلكت في الحياة أفضل الطرق، لن أكون بحاجة إلى استجداء الخبز عندما يدركني الهرم.

عندما فرغ السيد من كلماته نظر إلى جورج متحديا، وقال تشيكين جورج:

- نعم يا سيدي.

ولم تسعفه الكلمات بغير هذه الإجابة، وتابع السيد حديثه قائلا:

- حدث ذلك عندما هجرت البيت وأنا في الحادية عشر من عمري.. سرت في الطريق أسأل كل من أقابله عن عمل، أقوم بأي عمل من الأعمال التي يؤديها الزنوج.. كانت ثيابي مهلهلة وآكل النفايات، ظللت لسنوات أقصد كل سنت أحصل عليه حتى تمكنت من شراء أول خمسة وعشرين فدانا من أراضي الغابات، ومعها أول عبد وكان اسمه جورج، ولقد سميت في الواقع على اسمه..

سكت السيد برهة في انتظار أن يقول تشيكين جورج شيئا ولما رآه صامتا تابع حديثه قائلا:

- نعم.. ثم جاء بومبي بعد ذلك ليكون ثاني عبيدي.. هل تسمع ما أقوله لك يا فتى؟ ظللت أعمل جنبا إلى جنب مع ذلك الزنجي جورج.. نقطع الأشجار ونستخلص الأحجار من الأرض ونمهدها لنزرعها، وشاءت إرادة الرب أن أشتري ورقة يانصيب بخمسة وعشرين سنتا، وبتلك الورقة ربحت أول ديك مقاتل.. كان ذلك الديك أفضل طائر رأيته، حتى عندما أصيب بجرح خطير عالجته، واستطاع أن يكسب لي المزيد من المعارك.

سكت السيد برهة ثم عاد يقول:

- هل تدري لماذا أنا أجلس هنا أتحدث بهذه الطريقة إلى زنجي، ولكنني أعتقد أن على الإنسان أن يتحدث مع أي فرد في بعض الأوقات.

التزم الصمت برهة أخرى ثم أردف يقول:

- لا تستطيع أن تتناول الحديث مع زوجتك كثيراً.. يبدو أن المرأة تسعى للإيقاع بالزوج لتعنى به، ولكنها تقضي عمرها بعد الزواج مريضة أو شاكية من شيء بينما الزنوج يقومون بخدمتها ليل نهار، أو تظل تعالج وجهها بالمساحيق حتى تبدو كالأشباح.

لم يصدق تشيكين جورج ما تسمعه أذناه، ولكن السيد اندفع كالسيل لا يستطيع أن يتراجع ومضى يقول:

- أوه لعلك تعثر على الصنف الآخر مثلما حدث لأسرتي.. لقد ظللت أتساءل في عجب مرات عديدة: لماذا لم يحاول واحد من إخوتي أو أخواتي التسعة أن يكافح مثلما كافحت؟.. إنهم لا يزالون يشقون ويعيشون عيشة الكفاف التي تركتهم عليها فيما عدا أن كلا منا قد أصبح له أسرة.

فكر تشيكين جورج في أنه من الأفضل ألا يعلق بشيء على ما يقوله السيد عن أسرته حتى بقوله: "نعم يا سيدي"، وكان جورج قد رأى بعضهم بنفسه عندما كان السيد يلتقي بهم في حلبات مصارعة الديكة أو

في المدينة، وكان يمنحهم خمسين سنتا دولارا كاملا أو حينما كان يدعوهم في بيته على العشاء فيأكل الواحد منهم ثلاثة أضعاف وجبته، حتى إذا أدار لهم السيد ظهره أخذوا يطعنون فيه ويصفونه بأنه كالثعلب.

استأنف السيد حديثه مرة أخرى قائلا:

- هل فعل أي واحد منهم مثلما فعلت؟ لكن المهارة كانت تغضبهم.. فليذهبوا إذن إلى الجحيم.

أخذ السيد إلى الصمت مرة أخرى ولكن ليس لفترة طويلة ثم أردف يقول:

- بطريقة أو بأخرى سارت الأمور معي على ما يرام، وأصبحت أعيش الآن تحت سقف محترم، ولدي مائة طائر مقاتل وخمسة وثمانين فدانا نصفها مزروع بالمحاصيل، هذا بالإضافة إلى الجواد والبغال والأبقار والخنازير، كما أمتلك عدداً قليلا من العبيد.

وفكر جورج تشيكين أن يجيب بقوله: "نعم يا سيدي!"

ولكنه رأى من الأفضل أن يوجه دفة الحديث إلى وجهة أخرى، فقال:

- ولكننا نحن العبيد نعمل أيضا بإخلاص من أجلك يا سيدي، منذ عرفت أمي والمس ماليزي والأخت سارا والعم بومبي والعم منجو، ونحن نتفانى في خدمتك بقدر ما نستطيع..

وقبل أن يعلق السيد على حديثه بشيء، تطرق تشيكين جورج إلى موضوع كانت الأخت سارا قد أثارته في الليلة الماضية، وقال جورج:

- في الواقع يا سيدي، فيما عدا أمي فإن الآخرين قد تجاوزوا الخمسين من عمرهم.

حبس جورج لسانه في الوقت المناسب ولم يقل أن الأخت سارا لم تقل أن السيد يبخل بشراء أي زنجي شاب ويتوقع أن يعصر عبيده حتى يسقطوا موتى..

وقال السيد بخشونة:

- يبدو أنك لم تكن تستمع جيداً إلى ما أقوله يا فتى! هل بذل واحد من العبيد مثلما بذلت من جهد؟ لهذا فلا تحاول أن تخبرني الآن كيف يعمل العبيد بإخلاص!

- نعم يا سيدي.

- ما معنى قولك نعم يا سيدي؟

- نعم يا سيدي.. لا شك في أنك عملت بإخلاص أيضا يا سيدي.

- بلا شك.. هل تتصور أنه من السهولة أن يكون الإنسان مشغولا عن كل شيء وكل فرد في هذا المكان؟ هل تتصور أنه من الأسهل على الإنسان تربية قطيع كبير من الطيور؟

- كلا يا سيدي.. إنني أعلم جيداً مدى ما تبذله من جهد.

فكر جورج في أن العم منجو ظل يعتني كل يوم طوال ثلاثين عاما بالطيور، فضلا عن السبع سنوات التي أنفقها جورج في هذا العمل، ورغبة منه في أن يعبر عن مدى طول المدة التي خدمها العم منجو، سأل ببراءة:

- سيدي.. هل لديك فكرة.. كم يبلغ من العمر العم منجو؟

سكت السيد برهة وهو يفرك ذقنه ثم قال:

- يا للجحيم.. إنني لا أعلم على وجه التحديد.. دعني أخمن.. إنه يكبرني بحوالي خمسة عشر عاماً، وهذا يعني أنه في أوائل الستينيات ويزداد كبراً كل يوم.. يبدو أنه يزداد مرضا عاما بعد عام.. كيف تراه في نظرك؟ إنك تعيش معه في مكان واحد.

خطر في بال تشيكين جورج نوبات السعال الشديد التي هاجمت العم منجو في الأيام الأخيرة، وعلى قدر معلوماته ومما سمعه من الميس ماليزي والأخت سارا، فإن السيد ينظر إلى شكوى أي فرد من عبيده بشأن المرض على أساس أنها نوع من الكسل! ومن ثم قال:

- حسنا يا سيدي.. إن حالته الصحية طيبة في معظم الأوقات، ولكنني أحب أن أخطرك يا سيدي أن نوبات السعال تفاجئه أحياناً مما يثير الرعب في قلبي، لأنني أعتبره بمثابة أب لي.

أفلتت الكلمات من بين شفتيه وكان لها رد فعل سيئ، فقد اندفع السيد يقول بغضب:

- أي خدمات كثيرة فعلها من أجلك؟ أكان هو الذي انتشلك من العمل بالحقول ليبني لك كوخاً يؤويك؟

- كلا يا سيدي.. أنت الذي فعلت كل ذلك.

خيم الصمت برهة قبل أن يقرر السيد استئناف الحديث، وقال:

- إنني في الواقع لم أكن أفكر في الموضوع الذي أثرته منذ قليل، ولكن طالما أنك فاتحتني في الموضوع، فإنني أعترف أنني أملك مجموعة من الزنوج الشيوخ، ومن المحتمل أن يسقط بعضهم في القريب العاجل، ومع ارتفاع أسعار العبيد في الوقت الحاضر أخاف أفكر في شراء واحد أو اثنين من الشباب للخدمة في الحقل.

اقترب السيد من تشيكين جورج قليلا وهو يقول:

- هل ترى عن أي شيء أتحدث؟ الأشياء التي تشغل بالي طوال الوقت؟

- نعم يا سيدي.

- نعم يا سيدي.. نعم يا سيدي. هذه إجابة العبد على أي شيء يقال له!

- لا شك في أنك لا تحب لأحد من عبيدك أن يخالفك في الرأي.

- حسن.. ألا تجد رداً آخر تقوله إلى جانب... نعم يا سيدي؟

- كلا يا سيدي.. أعني.. طالما أن لديك بعض المال تشتري العبد.. لقد ربحت في هذا الموسم قدراً طيباً من المال في قتال الديوك.

- سيدي.. هل يوجد صاحب ديوك للقتال لا يمتلك مزرعة؟ أعني أنه لا يزرع الأرض.. لا يفعل شيئا سوى تربية الطيور؟

- كلا على قدر ما أعرف، إلا إذا كان من سكان المدن، ولكنني لم أسمع قطَّ عن أي واحد منهم يمتلك قدراً معقولا من الطيور ويمكن أن يطلق عليه صاحب ديوك مقاتلة.

فكر السيد قليلا ثم أردف يقول:

- في الواقع.. كلما ازداد عدد الطيور التي يملكها إنسان كلما كبر حجم مزرعته، إليك على سبيل المثال المستر جيويت الذي تتردد على مزرعته سعيا وراء النساء..

لعن تشيكين جورج نفسه وهو يفكر في أنه أعطى الفرصة للسيد ليتحدث في هذا الموضوع، ورغبة منه في أن يحول الحديث دفة أخرى قال:

- لم أعد أذهب هناك يا سيدي.

بعد فترة من الصمت عاد السيد يقول:

- هل عثرت على صيد في مكان آخر؟

- إنني ألازم المزرعة الآن يا سيدي.

وقال السيد لي ساخراً:

- تريد أن تقنعني أن شابا مثلك في العشرين من عمره لا يلهو! أيها الفتى.. لا تحاول أن تخبرني أنك لا تتسلل بالليل سعيا وراء الأجسام الدافئة ليتني أستطيع أن أؤجرك للإنجاب.. أراهن أن ذلك يروقك! أخبرني والآن أريد أن أسمع منك الحقيقة يا فتى!

فكر تشيكين جورج فيما حدث بين السيد وأمه وأحس بالغضب في أعماقه، ولكنه تمالك نفسه وقال بهدوء:

- ربما كان الأمر ما تقول يا سيدي.

تردد قليلا ثم أضاف إلى ذلك قوله:

- لم أعرف عددا كافيا من النساء.

- تريد أن تقول أنك لا تتسلل من المزرعة أثناء الليل، ولكن الوقت قد حان لأخبرك أنني أعرف متى تتسلل وإلى أين تذهب.. إنني لا أريد أن تكشفك دوريات الليل وتطلق عليك النار كما حدث بالنسبة لمدرب المستر جيويت، لهذا سوف أخبرك بما أنوي أن أفعله يا فتى، عندما تعود إلى المزرعة سوف أحرر لك جوازاً يسمح لك بالخروج كل ليلة حتى تلتقي بمن تشاء من النساء.. لم أفكر من قبل في أن أفعل شيئا مثل هذا لأي عبد!

أحس السيد لي بشيء من الحيرة غطى عليه بقطب جبينه ثم قال:

- ولكنني سوف أخبرك بشيء.. في أول مرة تخرج فيها أود ألا تعود مع الفجر أو منهك القوى بحيث لا تقوى على العمل وإلا عرفت أنك ذهبت مرة أخرى إلى مزرعة جيويب مرة أخرى، في هذه الحالة سوف أمزق تصريح الخروج وأمزق جسدك معه.. هل تفهم هذا؟

لم يصدق تشيكين جورج ما سمعه وقال بسرور:

- سيدي.. إنني أقدر لك صنيعك، ولا أدري كيف أشكرك يا سيدي.

- حسنا.. لعلك ترى الآن أنني لست نصف ذلك الشرير الذي يتصوره العبيد، تستطيع أن تخبرهم أنني أعرف كيف أعمال العبيد بلطف عندما أريد.

فكر تشيكين جورج قليلا قبل أن يقول:

- حيث أنك وعدتني بإصدار تصريح للخروج ليلا؛ فلا بد لي من أن أعترف لك بأنني كنت أتسلل في بعض الليالي لأزور فتاة من عبيد السيد ماك جريجور، تلك الفتاة تدعى ماتيلدا وهي تعمل بالحقل تقول لي: أنها تريدني أن أكون رجلا صالحاً. أصارحك يا سيدي أنها أول فتاة حاولت معها ولم تسمح لي أن ألمس جسدها.. قلت لها: إنني أستطيع أن أنال أي امرأة عندما أرغب، فكان ردها: اذهب إليهن واتركني وشأني.

استمع إليه السيد لي بارتياب، لكن تشيكين جورج تابع حديثه قائلا:

- وثمة أمر آخر.. في كل مرة أذهب للقائها كانت تتلو عليَّ شيئاً من الإنجيل، لأن سيدها كان واعظاً وتعهد بتربيتها إلى أن دفعه تدينه إلى بيعها مع بقية العبيد، هذه الفتاة التي لم تتعد السابعة عشرة من عمرها ذهبت إلى حانة اعتاد السود أن يتجمعوا فيها ووقفت تنادي فيهم بأعلى صوتها طالبة منهم الرجوع عن طريق الرذيلة لأن الرب ينقذ التائبين من نار الحريق.

انفجر السيد ضاحكاً وهو يقول:

- يا لها من فتاة!

تردد تشيكين جورج قبل أن يقول:

- سيدي.. لقد كنت أجري بالفعل وراء الأجساد الدافئة قبل أن أعرف تلك الفتاة، ولكنني منذ رأيتها وأنا أفكر بطريقة أخرى، على الإنسان أن يفكر في الزواج من امرأة صالحة.

مضى بعض الوقت قبل أن يقول السيد:

- هل يعرف المستر ماك جريجور أنه كنت تغازل واحدة من عبيده؟

- إنها تعمل بالحقل ولا تستطيع أن تتوجه إليه بالحديث مباشرة، ولكن العبيد في المزرعة يعرفون ولا بد وأن بعضهم قد أخبره.

- كم يبلغ عدد العبيد الذين يمتلكهم المستر ماك جريجور؟

- إنه يمتلك بيتا كبيراً وأعتقد أنه يمتلك عشرين أو أكثر من العبيد.

سكت المستر لي برهة ثم استأنف حديثه قائلا:

- أنت في الواقع لم تتسبب لي أي متاعب منذ مولدك، ولقد ساعدتني، وسوف أفعل أي شيء لصالحك. إذا كانت تلك الفتاة مجنونة بالقدر الذي يجعلها توافق على الزواج منك، سوف أتحدث مع المستر ماك جريجور وإذا وافق على بيعها بسعر معقول، سوف أسمح لكما بالزواج وبناء الكوخ الخاص بكما.. ما اسم تلك الفتاة؟

- تيلدا.. ماتيلدا يا سيدي.

لم يجد تشيكين جورج الكلمات المناسبة التي تعبر عن امتنانه، وقال في النهاية:

- سوف يحدث هذا طالما أنك تفهم أن مكان عملك الأول حيث يكون منجو.

- بالطبع يا سيدي.

لوح السيد بإصبعه وهو يقول محذراً:

- سوف أسحب تصريح الخروج بمجرد أن يتم الزواج.. لا بد أن أساعد تلك الفتاة على حمارها الأسود ليبقى في البيت!

عندما بزغت شمس الصباح الذي تحدث لزفاف تشيكين جورج في يوم من أيام شهر أغسطس ١٩٢٨م، كان العريس مشغولا بتركيب مفصلات الباب لكوخه ذي الحجرتين الذي لم يستكمل بعد، وعندما

فرغ من تلك المهمة أسرع إلى مخزن المحصولات ليحمل فوق رأسه الباب الذي صنعه له العم بومبي من خشب البلوط وركبه في مكانه، ثم ألقى نظرة على الشمس التي بدأت ترتفع وأخذ يأكل بعض قطع البسكويت والشطائر التي رمتها له أمه في الليلة الماضية عندما رأته يتكاسل في استكمال بناء الكوخ، ودفعها الغضب إلى أن تطلب من الآخرين التوقف عن تقديم التشجيع له.

أسرع تشيكين جورج إلى البرميل الصغير الذي ملأه بالجير الحي بعد إطفائه بالماء، وأخذ يقلبه بشدة ثم غمس الفرشاة الكبيرة في الخليط وبدأ يطلي أرضية الكوخ الخشنة، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً عندما أتم هذه المهمة، وكان جسمه قد ابيض هو الآخر من آثار الجير، ولكنه أقنع نفسه أن الوقت لا يزال مبكرا، قبل أن يغتسل ويرتدي ثيابه، ثم يركب العربة في الرحلة التي تستغرق ساعتين إلى مزرعة ماك جريجور حيث ينتظر أن تتم مراسم الزفاف.

قطع الطريق أكثر من مرة بين الكوخ والبئر ليملأ الدلو بالماء ويزود به الوعاء المعدني الذي وضعه في منتصف الحجرة، وبدأ يستحم وهو يغني بصوت مرتفع ثم جفف جسمه بالمنشفة وأسرع إلى غرفة النوم ليرتدي ملابسه، لبس قميصه الأزرق والجوارب الحمراء والبنطلون الأصفر والسترة ذات الظهر الأصفر، ثم أخيرا لبس حذاءه الجديد ذا اللون البرتقالي، وكان قد اشترى كل تلك الملابس واحدة بعد الأخرى من الأرباح التي حققها من قتال الديكة خلال بضع الشهور الماضية.

جلس تشيكين جورج فوق الهدية التي قدمها له العم منجو وهي عبارة عن كرسي مرتفع لينظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة التي أعدها كمفاجأة للعروس، وتنهد بارتياح، ثم استعان بالمرآة ليلف حول عنقه الوشاح الأخضر الذي حاكته له ماتيلدا، ثم أخرج من صندوق كان يضعه تحت السرير القبعة السوداء التي أهداها له السيد لي، وأدار القبعة فوق رأسه ببطء، وسمع صوت أمه تنادي في الخارج بحدة:

- ألم يحن الوقت لتخرج! إننا ننتظرك في العربة منذ ساعة.

وأجابها بصوت مرتفع:

- أنا قادم يا مامي.

ألقى على نفسه نظرة أخيرة في المرآة وارتاح لمنظره، ثم أخرج زجاجة خمر مفلطحة دسها في جيب سترته، وخرج من باب الكوخ وهو يتوقع أن يقابل بالتصفيق، ووضع قبعته قليلا إلى الوراء وهو يبتسم لأمه ابتسامة عريضة، ولكنه بوغت عندما طالعته عينا أمه المتقدتان غضبا، والنظرات الساخطة التي أمضيت عليه من عيون المس ماليزي والأخت سارا والعم بومبي الجالسين في العربة مرتدين أحسن ما لديهم من الثياب. حول جورج بصره عنهم وهو يقفز إلى مقعد السائق ويشد اللجام لتبدأ الرحلة بعد الموعد المحدد بساعة كاملة.

شرب تشيكين جورج خلال الرحلة بضع جرعات من الشراب، ووصلت العربة إلى مزرعة ماك جريجور بعد الثانية بقليل، ونزلت كيزي

والأخت سارا والمس ماليزي من العربة وهم يتمتمون للعروس القلقة في ثوبها الأبيض باعتذارهم عن التأخير.

أنزل العم بومبي من العربة صناديق الطعام التي أحضروها معهم، وبعد أن قبل تشيكين جورج وجنتي عروسه، مشى ورائحة الخمر تفوح من فمه وهو يقدم نفسه للمدعوين.

بالإضافة إلى العبيد الذين كان جورج يعرفهم في مزرعة المستر ماك جريجور، كان أغلب الضيوف من المصلين في الكنيسة من العبيد الذين يعملون في المزارع القريبة وحصلت ليندا على موافقة من السيد لدعوتهم، فقد كانت العروس سعيدة لهؤلاء الأتقياء أن يلتقوا بزوجها، ورغم أن عدداً كبيراً من هؤلاء المدعوين كان قد سمع الشيء الكثير عن تشيكين جورج، إلا أن الدهشة أصابتهم جميعاً عندما شاهدوه رأى العين، وفضل العم بومبي أن يتوارى عن الأنظار كأنه لا يعرف العروس... أخيراً جاء القس الأبيض قادماً من البيت الكبير يتبعه المستر ماك جريجور وزوجته والسيد لي، ووقف الجميع في مؤخرة الساحة بينما تشبث القس بالإنجيل كالدرع، وكما خططت المسز ماك جريجور لحفل الزفاف، فقد رئي أن يجمع بين التقاليد المسيحية للبيض والقفز فوق المكنسة فيما بعد، ووقف العروسان أمام القس الذي أخذ يتلو بعض الآيات الإنجيل ثم قال:

- ماتيلدا وجورج.. هل تقسمان على أن يقبل أحدكما الآخر زوجا على الخير والشر طوال العمر؟

وقالت ماتيلدا بصوت رقيق، بينما صاح جورج بصوت مرتفع:

- أقسم.

- نعم يا سيدي.

سكت القس قليلا ثم قال:

- إنني أعلن زواجكما.

صاح واحد من بين الحاضرين:

- الآن.. يمكن أن تقبل العروس.

أحاط تشيكين جورج بالعروس بذراعيه وقبلها، ثم شبك ذراعه بذراعها وقفزا فوق المكنسة، وكدح ذهنه ليقول شيئا يليق بالمناسبة ويرفع من قدر أسرته في هذا الجمع المتدين الذين وجهت إليهم ماتيلدا الدعوة لحضور زفافها وقال:

- الرب هو راعي.. لقد أعطاني الرب ما تمنيت.

وبينما كان المدعوون يتصايحون في صخب، انتهز تشيكين جورج الفرصة وأخرج زجاجة الخمر من جيبه ليسكب في جوفه ما تبقى من قطرات، واستغرق الاحتفال ووليمة الزفاف ساعة، ثم تولى العم بومبي قيادة العربة في رحلة العودة قبل الغروب، وبنظرات عابسة تطلعت الأم كيزي والأخت سارا والمس ماليزي إلى الخلف حيث كان شخير العريس يعلو وهو يسند رأسه على حجر عروسه الباكية، وقد انحرف وشامه

الأخضر عن عنقه بينما يكاد رأسه يختفي وراء القبعة السوداء.

عندما توقفت العربة أمام الكوخ الجديد، أفاق تشيكين جورج من نومه، وعندما أحس بأنه مدين بالاعتذار للجميع بدأ يعتذر، ولكن أبواب ثلاثة أكواخ أغلقت في وجهه، وحمل عروسه بين يديه وفتح الباب بإحدى قدميه، وتعثر في عتبة الباب فسقط على الأرض في وسط الحجرة، وأحس بالمهانة، ولكن ماتيلدا سرعان ما نسيت كل شيء عندما رأت هدية الزفاف التي أعدها لها تشيكين جورج، ساعة كبيرة في نفس طولها، وكان جورج قد اشتراها من آخر مدخراته وجاء بها من جرينزبورو، وبينما كان تشيكين جورج لا يزال جالسا على الأرض حيث سقط وقد ابتل حذاؤه الجديد، مدت له ماتيلدا يدها لتساعده على النهوض قائلة:

- سوف تذهب الآن معي يا جورج! إنني سوف أضعك على السرير.

الفصل السابع

علت الطرقات علي باب المطبخ في صباح أحد الأيام ومع أول خيط خيوط الفجر كان تشيكين جورج في طريقه إلى مزرعة الدواجن، وفوجئت المس ماليزي بعد حوالي ساعة من موعد الإفطار بهذه الطرقات على باب المطبخ، وعندما فتحت أدهشها أن ترى العروس الجديدة فدعتها للدخول، ولكن ماتيلدا أجابتها قائلة:

- كلا.. شكراً لك.. أردت فقط أن أسألك عن الطريق المؤدي إلى الحقل، حيث أستطيع أن أحصل على فأس.

وبعد بضع دقائق ظهرت ماتيلدا في الحقل لتنضم إلى كيزي والأخت سارا والعم بومبي وتباشر العمل معهم، وصحبها الجميع في المساء إلى أكواخهم في محطة العبيد لتبقى بصحبتهم إلى أن يعود زوجها من عمله، وخلال الحديث الذي دار بينهما سألت عما إذا كانت الصلوات تقام بانتظام في محلة العبيد، وعندما علمت أن شيئاً من ذلك لا يحدث، عرضت أن تقام الصلاة بعد ظهر أيام الآحاد، وقالت كيزي بخجل:

- أصارحك بالحقيقة.. يخجلني أن أخبرك أنني لم أقترب من قبل من أماكن العبادة.

وقالت الأخت سارا:

- وأنا أيضاً.

وقال العم بومبي:

- يبدو لي أن الصلاة لم تفعل شيئا لتحسن سلوك البعض.

وقالت ماتيلدا بحماس:

- يقول الإنجيل: إن يوسف كان عبدا للمصريين، ولذا كان الرب مع يوسف، ومن أجله منح المصريين الرخاء.

تبادل الثلاثة الآخرون النظرات، ثم قالت الأخت سارا:

- أخبرنا جورج أنك كنت عبدة لواعظ، أنت نفسك تبدين كالواعظ.

- إنني عبدة للرب.. هذا كل ما في الأمر.

بدأ أول اجتماع للصلاة بعد ظهر الأحد التالي، وكان تشيكين جورج قد رحل مع السيد في رحلة لمصارعة الديوك منذ يومين.

وقال جورج لعروسه قبل رحيله:

- السيد عثر في هذه المرة على الطيور المناسبة للفوز في مكان بالقرب من جولد سبورو

وذات يوم بينما كانوا في الحقل قالت الأخت سارا ذات السبعة وأربعين عاماً للعروس التي لم تتجاوز الثامنة عشرة:

- يا إلهي.. أعتقد أن حياتك الزوجية سوف تقسم بينك وبين تلك الطيور.

وأجابت ماتيلدا قائلة ببساطة:

- هل كان الإنسان هو صانع زواجه؟ الرب وحده يعلم ما يريدنا أن نكون.

وفي حديث آخر مع كيزي، قالت ماتيلدا:

- عندما تأكد جورج من أن رجلا لم يقربني عرض عليَّ الزواج.

وأجابت كيزي قائلة:

- إنني سعيدة لأنه كان عاقلا في هذا الطلب، ولكنني أريد أن أقول لك شيئا: أريد أن أرى بعض الأحفاد.

- ليس في هذا خطأ، لأنني أنا أيضا أتوق إلى أن يكون لدي بعض الأولاد.

وعندما أخبرت ماتيلدا الأم كيزي بعد ذلك بشهرين أنها حامل، فكرت كيزي في أن ابنها يوشك أن يكون أباً، وفكرت في نفس اللحظة في أبيها أكثر من أي وقت مضى خلال سنوات عديدة، وذات مساء آخر بينما كان جورج في إحدى رحلاته، قالت الأم كيزي لماتيلدا:

- ألم يحدثك قط عن جده؟

وأجابت ماتيلدا بارتباك:

- كلا لم يفعل.

وقالت كيزي باستياء:

- لم يفعل؟

وقالت ماتيلدا بسرعة:

- أعتقد أن الفرصة لم تسمح ليتحدث في هذا الأمر مسز كيزي.

قررت كيزي أن تفعل ذلك بنفسها حيث أنها كانت تذكر من غيرها، وبدأت تحدث ماتيلدا عن حياتها طوال ستة عشر عاما لدى السيد والي إلى أن باعها للسيد لي، وكان معظم حديثها يدور حول أبيها الإفريقي والأشياء الكثيرة التي رواها لها، وقالت كيزي:

- ماتيلدا.. لماذا أروي لك كل هذه القصص، لأنني أريد أن يعرف ذلك الجنين الذي يتحرك في أحشائك مولود قادم كل شيء عنه، عن ذلك الجد العظيم.

وقالت ماتيلدا:

- إنني أقدر ذلك يا مامي كيزي.

جاء أول مولود لماتيلدا وتشيكين جورج خلال ربيع عام ١٨٢٨ وقامت الأخت سارا بدور القابلة تساعدها الأم كيزي، وكان لقدوم

الحفيد أثره في تخفيف حدة غضبها، لأن الابن كان متغيباً مع سيده في رحلة، واجتمع العبيد في مساء اليوم التالي للاحتفال بالمولود الجديد، ثاني المواليد في المزرعة، وقالت ماتيلدا بسرور:

- أصبحت جدة يا ماما كيزي.

وقالت الأم كيزي بابتهاج:

- يا إلهي نعم! أليس هذا رائعاً؟

وغمز العم بومبي بعينه وهو يقول:

- يبدو لي أن كيزي قد أصبحت عجوزاً.

وقالت الأخت سارا مدافعة عن كيزي:

- لا توجد امرأة منا أكبر سنا من شخص لا نعرفه!

وقالت المس ماليزي بلهجة الأمر:

- حسنا... جاء الوقت لننصرف جميعا ونتركها كي يرتاحوا.

انسحب الجميع عدا كيزي، وبعد فترة طويلة من الصمت قالت ماتيلدا:

- لقد فكرت طويلا فيما ذكرته لي عن أبيك، وحيث أنني لم أر أبي قط، أعتقد أن جورج لن يمانع إذا أطلقت على المولود اسم أبي.. كان اسمه فيرجيل، هكذا كانت تقول أمي.

عندما عاد جورج وافق بترحيب على الاسم، وقال لأمه:

- بسرور.

- مامي.. هل تذكرين ما قلته لك.. سوف أمضي على إبقائي، سمعته منك.

وأرقد المولود على حجره أمام المدفئة موجها إليها الحديث قائلا:

- استمع إليَّ يا فتى! سوف أحدثك عن جدك العظيم.. كان جدك إفريقيًا واسمه "كونتا كينتي" كان يطلق على الكلمات كو، وعلى النهر كامبي بولونجو، وأسماء إفريقية أخرى كثيرة، يقول: إنه كان يقطع شجرة في موطنه ليصنع لأخيه طبلة عندما فوجئ بأربعة رجال يحيطون به ويطعنونه من الخلف ثم يحملونه إلى سفينة كبيرة في النهر العظيم إلى مكان يقال له: نابلس، وقد قام بالفرار أربع مرات، وعندما حاول قتل واحد من مطارديه قطعوا جزءًا من قدمه!وفي البيت الكبير تزوج فتاة كانت تعمل طاهية المكنسة، وكان اسمها المس بيل، وولدت لهما فتاة التي تراها الآن أمامك، إنها جدتك التي تنظر إليك عابسة.

كانت ماتيلدا تتابع الحديث بسرور بينما اغرورقت كيزي بدموع الحب والفخر. ومع كثرة غياب زوجها عن المنزل، كانت ماتيلدا تقضي معظم الوقت مع الجدة كيزي ويتناولان الطعام سويا، وكانت الجدة تجد متعة في مداعبة حفيدها والغناء له بينما تشغل ماتيلدا نفسها بقراءة بعض صفحات من الإنجيل، ورغم أن تعليمات السيد لم تكن تحرم القراءة إلا

أن كيزي كانت لا تزال تجهل القراءة، ولكنها كانت تتسامح مع ماتيلدا لأنها تقرأ الكتاب المقدس، وعندما كانت السهرة تطول وتغفو كيزي، كانت تتمتم ببعض الكلمات أثناء نومها، وكانت تردد:

- مامي.. بابي.. لا تدعوهم يأخذونني، لقد ضاع أهلي.. فقدوا.. لن أراهم مرة أخرى في هذا العالم

وكانت ماتيلدا تتأثر لسماعها تلك الكلمات وكانت تقول للجدة النائمة:

- نحن أهلك الآن.

وعندما تضع المولود في سريره توقظ الجدة كيزي وتوصلها إلى كوخها، وبينما هي عائدة تمسح دموعها.

كانت النساء الثلاث هن الوحيدات اللائي يحضرن في البداية للصلاة بعد ظهر الأحد، حتى سلمت الأخت سارا العم بومبي بلسانها السلطة فانضم إليهم، ولم يفكر أحدهم في توجيه الدعوة لتشيكين جورج، فحتى رغم وجوده في البيت، ما يكاد يحل الظهر حتى يعود إلى مزرعة الدواجن ويجلس الخمسة على المقاعد التي جلبوها على شكل نصف دائرة تحت ظل شجرة، وتقود ماتيلدا الصلاة ثم تشاركهم في الغناء، وينتهي الاجتماع بالحديث عن الإيمان وتقول ماتيلدا:

- هذا ما يريده الرب، لكل منا روح يجب عليه أن ينقذها، يجب أن نضع في أذهاننا أن الله هو الذي خلقنا، وأن المسيح هو الذي جاء

لتخليصنا، لقد علمنا السيد المسيح أن نكون متواضعين.

وتقول الجدة كيزي:

- إنني أحب السيد المسيح مثلما يحبه أي شخص آخر، ولكنكم كما ترون لم أعرف عنه الشيء الكثير إلى أن كبرت، ولكنني أذكر أن أمي أخبرتني أنها عمدتني عندما كنت صغيرة.

وقالت الأخت سارا:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نعرف الرب ونحن في مدارج الطفولة، لأن هذا يعرفنا بديننا ويجعلنا نتمسك به.

وقالت المس ماليزي موجهة حديثها للعم بومبي:

- من يدري، لو أنك عرفت الرب منذ حداثة سنك فربما سرت واعظاً؛ ملامحك تقول إنك واعظ.

وقال العم بومبي:

- واعظ! وكيف أكون واعظاً وأنا لا أعرف القراءة؟

وترد عليه ماتيلدا قائلة:

- إن الرب يضع على لسانك الكلمات عندما يختارك للوعظ.

وقالت المس ماليزي:

- لقد قام زوجك أثناء طفولته بدور الواعظ ذات يوم! ألم يخبرك بذلك؟

وضج الجميع بالضحك.

* * *

رغم أن عدداً قليلا من الأشخاص الذين قابلهم تشيكين جورج في رحلاته استطاع أن يخمن من الطريقة التي يتصرف بها أنه قفز مع عروسه فوق المكنسة، إلا أن تشيكين جورج أدهش النساء في محلة العبيد والبيت بالطريقة الجادة التي ينظر بها إلى الزواج وكيف أنه يعامل زوجته وأسرته معاملة طيبة. لم يحدث قط أن عاد من رحلات قتال الديكة مرتديا وشاحه الأخضر وقبعته السوداء التي أصبحت زيه المميز، في المطر أو الجو الصحو، صيفا أو شتاء، دون أن يحضر بعض النقود التي ربحها لتضاف إلى مدخراته. وكان يعطي لماتيلدا بعض الدولارات، ولم يكن يتبقى له الكثير بعد أن يدفع ثمن الهدايا التي يحضرها لماتيلدا وأمه، ولم يكن ينسى المسي ماليزي والأخت سارا والعم بومبي، حتى فيرجيل الصغير.. كما كان تشيكين جورج يعود أيضا حاملا معه حفنة من الأخبار أو الأشياء التي شاهدها وتحتاج روايتها إلى ساعة كاملة، وكان الزنوج في محلة العبيد يلتفون حوله، ويذكرها منظره وهو يروي لهم مشاهداته وما سمعته بما كان أبوها يفعله، وقد أصبح ابنها يقوم اليوم بنفس الدور.

وفي أعقاب عودته من رحلة إلى تشارلستون، وصف لهم تشكين جورج السفن الكبيرة التي شاهدها تحمل أعداداً كبيرة من الزنوج في

طريقها إلى إنجلترا وغيرها من الأماكن قائلا:

- يبدو أن الزنوج هم الذين يشقون الطرق ويحفرون القنوات ويبنون السكك الحديدية.. إن الزنوج يبنون هذا الوطن بعضلاتهم!

وسمع في مرة أخرى أن القوم البيض يهددون الهنود الذين يأخذون أعدادا كبيرة من الزنوج إلى معاقلهم، وأن بعض الزنوج قد أصبحوا زعماء للهنود!

وبينما كانت ماتيلدا راقدة على السرير بجوار تشيكين جورج ذات مساء قالت له:

- آليت على نفسي يا جورج ألا أتوجه إليك بالكثير من الشكاوى ولكنني أشعر في كثير من الأحيان كأنني لست متزوجة..

وأجابها ببساطة قائلا:

- إنني أعرف ما تقصدينه يا حبيبتي.. تلك الرحلات الكثيرة التي أذهب فيها مع السيد، وذهابي في أحيان أخرى مع العم منجو لقضاء الليل بطوله في علاج الديوك المريضة، من الأفضل أن يتجه تفكيري إليك وإلى صغيرنا.

حاولت ماتيلدا أن تمسك لسانها ولا تتحدث عما يساورها من شكوك، وقالت بدلا من ذلك:

- هل تعتقد أن الأمور سوف تتحسن في المستقبل يا جورج؟

- عندما تنمو ثروة السيد، سوف يفكر هو نفسه في البقاء بالبيت، ولكن الأمر لا يتسبب لنا في ضرر يا صغيرتي.. ألسنا نوفر بعض النقود كما استطعت أن أحقق بعض الأرباح؟

وأجابت ماتيلدا بمرارة:

- ليس المال معادلا لك!

سكتت ماتيلدا برهة ثم قالت بلهجة أكثر رقة:

- ومع هذا فنحن نستطيع أن نوفر المزيد لو أنك قللت من شراء الهدايا للجميع.

كانت ماتيلدا في الواقع فريسة القلق والوساوس من ذلك الزوج الغريب، ولم تكن على ثقة مما إذا كان يحبها هي وابنها أكثر من حبه لرحلاته مع السيد، وتساءلت: هل يوجد في الكتاب المقدس شيء عن الدواجن؟ وتذكرت أنها قرأت شيئا عن الدجاجة التي تحمي صغارها تحت أجنحتها، ومع هذا فعندما كان زوجها يبقى في المنزل، تحاول ماتيلدا أن تنسى هواجسها وتحاول أن تبدو كأحسن زوجة، ولو علمت أنه قدم تسارع فتجهز له أفضل الوجبات التي يحبها، وإذا جاء فجأة قامت بتجهيز وجبة في الحال سواء كان ذلك بالليل أم في النهار، وإذا جاء شاكيا من قدميه، جهزت له الماء الساخن ووضعت فيه البصل والصابون الذي تعمله في البيت ليضع قدمه في الماء الساخن، وعندما بدأ فرجيل يتعلم المشي أحست ماتيلدا بالجنين الثاني يتحرك في

أحشائها.

ومع قدوم المولود الثاني، قررت الجدة كيزي أن الوقت قد حان لتتحدث مع ابنها في أمر كان يشغل بالها منذ بعض الوقت، وعندما عاد صباح أحد أيام الأحد وكانت ماتيلدا في البيت الكبير تعاون المس ماليزي في إعداد الطعام لبعض الضيوف قالت له كيزي:

- عليك أن تجلس أمامي هنا وتستمتع إليَّ.. لا يهمني أن تكون قد أصبحت رجلا فأنا التي أقرت بك إلى هذا العالم وأستطيع أن أؤدبك بالعصا.. يجب أن تقضي مزيدا من الوقت مع زوجتك وابنك وهي في طريقها أن تمنحك الابن الثاني.

وأجابها تشيكين جورج بحدة:

- ماذا تقولين يا مامي؟ عندما يطلب مني السيد أن أذهب قولي له أنت أنني لن أذهب!

وقالت له كيزي وقد اتقدت عيناها غضبا:

- أنت تعلم أنني لا أعني هذا.. توهم تلك الفتاة البائسة أنك تقضي الليل بجانب الطيور المريضة وما أشبه! أنت تذهب للشراب والمغامرة واللهو. أنت تعلم أنني لم أبك لتفعل هذا، ولا تظن أن ماتيلدا مغفلة لأنها قد بدأت تتذمر.

دون أن تضيف كلمة واحدة، انسحبت كيزي غاضبة.

عندما صحب تشيكين جورج سيده إلى قتال الديكة الكبيرة في تشارلستون عام ١٨٣٠ لم يكن أحد يستطيع أن يوجه إليه اللوم عندما وضعت ماتيلدا مولودها الثاني وأسمته أشفورد على اسم أخيها، وعندما عاد تشيكين جورج قال بابتهاج:

- ربح السيد ألف دولار، وبلغت أرباحي من المراهنات الجانبية خمسين دولارا. كنت أتمنى لو رأيتم البيض والسود على السواء يصيحون: "أراهن على تشيكين جورج!"

وأخبر ماتيلدا ما قاله له السيد عن الرئيس آندرو جاكسون وكيف أنه من هواة قتال الديكة، وأنه يغامر ويشرب شأنه شأن أي مواطن عادي، كما يقول السيد أن الرئيس حسبما سمع من البعض في الجنوب قال أستطيع أن أبقى في منصب الرئاسة حتى يمله!

لم تبد ماتيلدا اهتماما، ولكن تشيكين جورج كان قد شاهد في تشارلستون منظرا هز أعصابها وأعصاب العبيد في محلة العبيد. من الأعماق قال لها:

- شاهدت طابورا من العبيد مقيدين بالسلاسل يبلغ طوله ميلا.

وسألته المس ماليزي بقلق:

- يا إلهي! من أين جاء هؤلاء العبيد؟

- من شمال وجنوب كارولينا، ولكنني سمعت أن أغلبهم من فيرجينيا، سمعت من العبيد في تشارلستون أن عدداً لا يقل من ألف عبد

يرسلون كل شهر إلى مزارع القطن الكبيرة في ألاباما، لويزيانا، أركانساس، وتكساس... ويقولون: إن تجار العبيد التقليديين قد بدءوا في الاختفاء لتحل محلهم شركات كبيرة لها مكاتب في الفنادق، ويقولون أيضاً: إن سفنا ضخمة لا تنقل شيئا سوى العبيد المقيدين بالسلاسل من فيرجينيا إلى نيو أورليانز، كما يقولون.

قاطعته كيزي بحدة قائلة:

- كفى.. كفى.

واندفعت إلى الخارج باكية، وسأل تشيكين جورج ماتيلدا في دهشة:

- ماذا أصابها؟

وانفجرت ماتيلدا صائحة في وجهه:

- ألا تعلم السبب؟ كان أبوها وأمها في فيرجينيا، لقد أثرت فزعها حتى الموت!

وجم تشيكين جورج وأبان وجهه أنه لم يكن يدرك أبعاد الموقف، وأردفت ماتيلدا تقول:

- تعلم كما أعلم تماماً أن مامي كيزي قد بيعت! مثلما كان الحال معي! لا يستطيع أي إنسان بيع أن ينسى ذلك أبداً، لن تدرك معنى ذلك لأن الأمر يختلف بالنسبة لك؛ لهذا فإنك لا تفهم لماذا لا نستطيع

أن نثق في واحد من أولئك السادة البيض بما فيهم سيدك!

وسأل تشيكين جورج ببراءة:

- ولماذا توجهين إليَّ كل هذا اللوم؟

- لقد سألتني عن سبب حزن مامي كيزي، وها قد أخبرتك. جورج.. إنني أعرف الشيء الذي يخفف عن مامي كيزي.. اذهب إليها وادعها لكي تراك تحدث هذا المولود عن جده الإفريقي مثلما فعلت مع فيرجيل..

وكان هذا هو ما فعله تشيكين جورج!

الفصل الثامن

كان الوقت قبيل الفجر، بينما كان تشيكين جورج يقترب من باب الكوخ حيث تنتظره ماتيلدا، كان يتطوح في مشيته وقبعته السوداء منحرفة عن موضعها وقال:

- تسلل ثعلب بين الطيور، وظللنا أنا والعم منجو نطارده طوال الليل

ورفعت ماتيلدا يدها لتسكته ثم قالته باستياء:

- أعتقد أن الثعلب هو الذي منحك الخمر وعطر ثيابك بماء الورد!

حاول جورج أن يدافع عن نفسه ولكنها مضت تقول:

- الآن.. استمع إليَّ يا جورج.. طالما بقيت زوجة لك وأما لأطفالك، فسوف يظل مكاني هنا عندما تغادر البيت أو تعود إليه؛ لأنني لست مثلك أرتكب الخطأ.. إنه مكتوب في الإنجيل: "أنت تحصد ما تزرع"، ومكتوب أيضا: "ابذر حبة تجن حبتين"، وفي الفصل السابع من إنجيل ماتيو: "بالكيل الذي تكيل به للآخرين يكال لك!"

أراد تشيكين جورج أن يتظاهر بالغضب ولكن لم يجد شيئا يقوله، وأدار ظهره للبيت وعادة إلى مزرعة الدواجن لينام هناك.

ولكنه عاد في اليوم التالي ممسكا قبعته في يده، وواظب منذ ذلك اليوم على المبيت بالمنزل مع أسرته خلال فصلي الخريف والشتاء، فيما

عدا الليالي القليلة التي كان عليه أن يصحب السيد فيها، وعندما بدأت ماتيلدا تشعر بآلام الوضع في صباح يوم من أيام يناير ١٨٣١، ورغم أن ذلك كان في أوج موسم قتال الديكة، فقد استطاع تشيكين جورج أن يقنع سيده بتركه في البيت، وأن يصحب بدلا منه العم منجو المريض.

ظل يذرع المكان جيئة وذهاب في قلق خارج باب الكوخ، وكان قلبه يتقطع وهو يستمع إلى أنين ماتيلدا في الداخل، ثم أرهف أذنيه ليسمع ما يدور داخل الكوخ.. سمع صوت مامي كيزي تقول:

- استمري في القبض على يدي بقوة.. بقوة أشد يا ابنتي.. خذي نفسا عميقا.. هذا حسن.. امسكي يدي بقوة... امسكي بقوة أشد...

ثم سمع صوت الأخت سارا تقول بلهجة الأمر:

- تمسكي.. هل تسمعين ما أقول؟.. والآن اجذبيه.. اجذبي!

ثم سرعان ما سمع صوت مامي كيزي تقول:

- يا إلهي.. إنه يخرج إلى الحياة!

وعندما سمع تشيكين جورج صوت صيحات حادة ثم سمع صيحات المولود الجديد تراجع إلى الخلف بضع خطوات في ارتباك، وخرجت مامي كيزي بعد قليل مقطبة الجبين لتقول له بأشياء:

- حسن! يبدو أن كل ما عندك هؤلاء الأولاد!

بدأ تشيكين جورج يقفز في الهواء وهو يصيح بصخب إلى درجة

جعلت مس ماليزي تغلق الباب الخلفي للبيت الكبير، واندفع نحوها ليحملها بين ذراعيه ويدور بها صائحا:

- هذه المرة أنا الذي أسمي المولود!

في مساء اليوم التالي وللمرة الثالثة، جمع تشيكين جورج الجميع ليستمعوا إليه وهو يخبر أحدث فرد في الأسرة عن جده الإفريقي العظيم الذي كان يسمي نفسه كونتا كنتي.

عقد ملاك الأراضي في إقليم كازويل اجتماعا في أواخر شهر أغسطس، وكان ضجيج المزارعين يتعالى وهم يتفرقون كل في طريقه إلى مزرعته، ورأى تشيكين جورج السيد يوقف العربة وينضم إلى الجمع المحتشد، ارتعدت فرائص تشيكين جورج الذي كان يضع المطواة في جيبه وهو يرى السيد يهبط من العربة بغضبة لينضم إلى عدد آخر من السادة البيض الذين ترجلوا عن جيادهم، وسمع السيد يتحدث إلى الآخرين بصوت أقرب إلى الصياح، وسمعه يقول:

- لا أدري على وجه التحديد كم عدد العائلات التي ماتت. نساء وأطفال كانوا نائمين في أسرتهم عندما فاجأهم السود القتلة حاملين الفؤوس والسيوف والعصي يتزعمهم قس زنجي يدعى نات ترينو.

نظر تشيكين جورج إلى مجموعة من العبيد السود يقفون بالقرب منه، ورأى الهلع الذي اعتراهم لدى سماع تلك الأخبار، وصيحات الغضب والتهديد تنطلق من حناجر السادة البيض، وتذكر شهور الرعب

والفزع في أعقاب الثورة التي حدثت في تشارلستون، وتساءل:

- ترى ما الذي يمكن أن يحدث الآن؟

اتجه السيد لي نحو عربته والغضب باد على وجهه بجلاء ودون أن يلتفت إلى الوراء، صعد إلى العرب وألهب ظهر الخيل بالسياط، وأخطر تشيكين جورج أن يتشبث بمؤخرة العربة التي انطلقت بأقصى سرعة.

عندما وصلت العربة إلى البيت الكبير، قفز السيد إلى الأرض بغضبة دون أن يلقي نظرة واحدة على جورج، وخرجت المس ماليزي بعد لحظات مسرعة في طريقها إلى محلة العبيد وهي تضع يديها فوق رأسها، ثم خرج السيد من البيت حاملا بندقية، وصاح في وجه جورج:

- عد إلى كوخك.

أصدر السيد أوامره إلى سائر العبيد بالخروج من أكواخهم وردد لهم ما سمعه تشيكين جورج من قبل، ولما كان تشيكين جورج يعلم أنه هو وحده الذي يستطيع أن يكن غضب السيد، قال له وهو يرتعد:

- أرجوك يا سيدي..

ففوجئ بالبندقية تتجه إلى صدره مباشرة، وقال السيد لي مزمجراً:

- أيها العبيد.. أخرجوا كل أمتعتكم في الأكواخ!

ظل السيد طوال الساعة التالية يفحص الأمتعة قطعة قطعة، والشرر يتطاير من عينيه في انتظار أن يعثر على أي سلاح أو شيء مشتبه فيه

يكون العبيد قد أخفوه داخل الأكواخ، ومزق الحشايا وحطم الصناديق في ثورة غضبه، وترك لهم الأمتعة في النهاية محطمة وممزقة شر ممزق.. رفس صندوق الأعشاب التي تحتفظ به الأخت سارا وطارت الأعشاب في الهواء، وانطلق بكاء النسوة الأربع، أما العم بومبي فقد شلته المفاجأة وتجمد في مكانه من الرعب.. وتشبث الصغار بثوب ماتيلدا، وأحس تشيكين جورج بالدم يصعد إلى رأسه وهو يرى ماتيلدا تبكي وتولول على الساعة الكبيرة التي حطمها السيد بمؤخرة البندقية بحثا عن مسمار أو أي شيء حادٍ يمكن أن يستخدم كسلاح وهو يقول بغضب:

- دعوني أعثر على شيء لأقتلكم جميعاً!

جاء الدور على العم منجو، وقال العجوز:

- أنا لم أفعل شيئاً يا سيدي.

وقال السيد بغضب:

- كانت نتيجة الثقة في الزنوج موت عائلات بأكملها

وصادر السيد البلطة والفأس وخابورا مدببا وإطاراً معدنيا والمطواتين اللتين يستخدمهما العم منجو وتشيكين جورج، وقال في النهاية:

- لو حاولتم أيها العبيد القيام بثورة، فلا تنسوا أنني أنام والبندقية بجانبي.

الفصل التاسع

استمر السيد في غضبه مُدة طويلة تصل إلى العام حتى أن رجع للهدوء من جديد، وجاء ذات يوم لمزرعة الدواجن وقال لتشيكين جورج باسماً:

- أصبح لديك الآن أربعة من الأولاد!

وقال تشيكين جورج بابتهاج:

- نعم يا سيدي.. ولد لي ابن مع أولى نسمات فجر اليوم يا سيدي!

وكان تشيكين جورج مشغولا في تلك اللحظة بمزج بياض اثنتي عشرة بيضة مع مكيال من البيرة ومسحوق القمح والشعير وتشكيلة أخرى من الأعشاب الجافة، وكان قد تعلم هذه الطريقة لإعداد طعام الطيور في ذلك الصباح فقط من العم منجو الذي اشتد عليه المرض، وكان يعاني طوال الليلة الماضية من نوبة سعال حادة، وطلب منه السيد أن يبقى في الفراش بقية اليوم، وكان تشيكين جورج في الواقع يقوم بتدريب الديوك وحده خلال الفترة الأخيرة نتيجة لاعتلال صحة المدرب العجوز.

لم تبق سوى ثمانية أسابيع على موعد المسابقة الكبيرة لصراع الديوك التي تقام في نيوأوليانز، وكانت الفرصة متاحة للسيد أن ينتقل إلى دائرة كبار ملاك الديوك المقاتلة لو أنه فاز في نصف الجولات التي

يشترك فيها في مسابقة تلك الولاية البعيدة، وكان تشيكين جورج شديد الاهتمام بالفوز في المسابقة التي أصبحت شغله الشاغل.

اقترب السيد من تشيكين جورج وقال له ضاحكاً:

- أليس من العجيب أيها الفتى أن ترزق بأربعة أولاد ولا تسمي واحداً منهم على اسمي؟

شعر جورج بالدهشة والسرور والحيرة في نفس الوقت ثم قال أخيراً:

- الحق معك يا سيدي.. هذا نفس ما كنت أفكر فيه.. سوف أسمي المولود الجديد توم لي.

ابتسم السيد ابتسامة عريضة، ثم أدار بصره ناحية كوخ العم منجو وقال:

- كيف حال الرجل العجوز.

- أقول لك الحق يا سيدي: عندما جاء العم بومبي أثناء الليل ليخبرني بوصول المولود الجديد كان العم منجو في أسوأ حال، ولكنه تحسن عندما قدمت له بعض الطعام.

وقال السيد:

- مع هذه النوبات المتكررة من السعال ربما كان من الأفضل أن نستدعي له الطبيب.

- ولكنه لا يؤمن بالأطباء يا سيدي.

- لا يهمني رأيه في الأطباء، ولكننا سوف ننتظر حتى نهاية الأسبوع لنرى كيف تتطور الحالة.

ظل السيد لي يفتش على المزرعة طوال الساعة التالية وهو يفحص الديوك الصغيرة، ثم الأكبر سنا، ثم الديوك المدربة التي تستعد لخوض المعركة التالية. وأعرب عن سروره لما رآه، ولكنه طلب من المدرب الشاب أن يستبعد كل طائر يرى فيه أدنى عيب، حيث إن الرحلة إلى نيو أورليانز سوف تستغرق ستة أسابيع، ولا بد من الاطمئنان على اختيار أفضل الديوك وأكثرها قوة وقدرة على الاحتمال.. وكان السيد قد أمر ببناء عربة جديدة مزودة بسرير للنوم، وأماكن تتسع لأقفاص الطيور الاثنتي عشر التي سوف ترافقه في الرحلة، فضلا عن طاولة تصلح لتدريب الطيور خلال الرحلة، وكان من المنتظر أن يتم استلام العربة خلال عشرة أيام.

عندما غادر السيد المزرعة انهمك تشيكين جورج في أداء المهام اليومية، وخلال عمله مع الطيور كان يفكر في فرق الموسيقى النحاسية التي سمع أنها تجوب الشوارع في نيو أورليانز، وفي مئات العبيد الذي يقال لهم: إنهم يرقصون في أحد الميادين رقصاتهم الإفريقية، والألوان المختلفة من النساء بين سود وسمر وبيض.. دق قلبه بشدة وهو يتعجل الرحيل.

وفي وقت متأخر في اليوم، ذهب ليزور العم منجو، وعندما طرق

على الباب وخطا إلى الداخل سأل العم منجو:

- كيف تشعر الآن؟ هل من خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟

نظر إليه العجوز بغضب ولكنه قال بانفعال:

- اخرج من هنا! اذهب واسأل السيد عما أشعر به فهو يعرف خيرا مني!

انسحب تشيكين جورج بهدوء تاركاً العم منجو وحده. وعندما فرغ تشيكين جورج من تدريب الطيور كانت الشمس قد أذنت بالمغيب وفكر في العودة إلى كوخه. وابتهج عندما وجد الجدة كيزي تزور ماتيلدا، وأخبرها وهو يضحك عن الحديث الذي دار بينه وبين السيد في الصباح، وكيف أسعد السيد أن يسمع منه أنه سمى المولود الجديد توم، ولكن المرأتين لم تشاركاه فرحته، وكانت ماتيلدا هي البادئة بالحديث قائلة:

- حسنا.. أعتقد أن في العالم عدداً كبيراً من يدعون توم!

وقالت الجدة كيزي:

- لا يوجد اعتراض على الاسم، ولكن ماتيلدا محقة لأنك تخص السيد بمعظم مشاعرك.

ووقف تشيكين جورج مغضباً وهو يقول:

- حسنا! من منكما التي سوف تخبر السيد أننا لن نسمي المولود على اسمه؟

قال ذلك وهو يغادر الكوخ، وكان السيد في نفس اللحظة جالسا في غرفة المعيشة بالبيت الكبير ممسكا بالكتاب المقدس، وسجل على الصفحة الأولى المواجهة للغلاف تاريخ الميلاد الخامس للمواليد في المزرعة تحت أربعة أسماء كان قد سجلها من قبل.. تشيكين جورج، وأبناؤه الثلاثة الأول، ثم على السطر الخامس ... **٢٠** سبتمبر **١٩٣٣** وضعت ماتيلدا مولودها.. الاسم: توم لي

عندما غادر تشيكين جورج الكوخ كان يحدث نفسه قائلا:

"ماتيلدا زوجة رائعة وامرأة فاضلة، ولكن من حق الزوج أن يستمتع بين الحين بذلك النوع من النساء اللائي يرغبن في الشراب والضحك ومتعة الجسد".

وكان تشيكين جورج في الواقع يشترك مع سيده في نفس الميول؛ فكانا يمضيان ليلة بعد انتهاء كل رحلة يذهب كل منهما فيها إلى حيث يجد المتعة.. ويتركان العربة والطيور تحت ملاحظة أحد المدربين نظير أجر، ثم يعودان في الصباح ليستأنفا رحلة العودة.

سكنت حدة غضب تشيكين جورج بعد غياب خمسة أيام عن البيت، ورأى أن الوقت قد حان ليعود إلى كوخه وأن يصفح عن أهله، واستقبلته ماتيلدا بترحاب قائلة:

- يا إلهي! سوف يشعر الأطفال بالسعادة عندما يرون أباهم مرة أخرى، خاصة هذا الصغير الذي لم تكن عيناه قد تفتحتا بعد عندما كنت هنا آخر مرة!

وانشرح صدره عندما وقعت عيناه على أبنائه الثلاثة الكبار، وكانت أعمارهم: خمسة، وثلاثة، وعامين.. وكان ثلاثتهم ينظرون إليه بوجل، وشعر برغبة شديدة في أن يضمهم إلى صدره، خاصة وأنه سيتغيب لمدة ثلاثة أشهر عندما يحين موعد الرحلة إلى نيو أورليانز، وفكر في ضرورة أن يمنحهم بعض الهدايا اللطيفة. عندما فرغ تشيكين جورج من تناول الوجبة التي أعدتها له زوجته، قالت ماتيلدا إلى فرجيل:

- اذهب إلى جدتك واطلب منها الحضور إلى هنا.

وجم الزوج قليلا وهو يفكر في المؤامرة الجديدة التي تديرها له المرأتان، وعندما جاءت كيزي قبلت الأطفال أولا قبل أن تنظر لابنها ثم قالت له:

- كيف حالك؟ لم نرك منذ بعض الوقت؟

- كيف حالك يا مامي!

جلست الجدة كيزي وأجلست المولود الجديد على حجرها وهي تقول:

- جورج.. كان أولادك يريدون أن يسألوك عن شيء.. أليس كذلك يا فرجيل؟

وقال ابنه الأكبر:

- بابي.. نريدك أن تحدثنا عن جدنا العظيم.

وقالت كيزي بحنان:

- إنك رجل طيب يا جورج.. لا تستمع لأي إنسان يقول خلاف ذلك، ولا تفكر قط في أننا لا نحبك.. أنني أحبك.. إنك ربما تقع في الحيرة أحيانا عندما تفكر فيمن نكون وأحيانا من نكون.. إننا لحمك ودمك مثلما أن هؤلاء الأطفال من لحم ودم جدهم الكبير.

اقترب تشيكين جورج بمقعده من الأطفال وتسلم المولود الجديد من أمه وبدأ يحكي لأبنائه الأربعة قصد جدهم الإفريقي، وقاطعه فرجيل قائلا:

- بابي.. أنا أيضا أعرف هذه القصة.

ومضى الطفل يروي القصة كما سمعها، حتى الكلمات الإفريقية، وقالت ماتيلدا معقبة على ذلك وهي تضحك بجذل:

- لقد سمع القصة ثلاث مرات من قبل، فضلا عن أن جدته لا تمل من ترديدها المرة بعد المرة.

همس جورج لنفسه ولأول مرة منذ وقت طويل أحس تشيكين أن هذا الكوخ قد أصبح بيته من جديد.

الفصل العاشر

جاء ميعاد تسلم العربة الجديدة وقد ذهب تشيكين جورج مع سيده بعد أربعة أسابيع إلى جيهينز بورد لتسلم العربة، وخلال الرحلة فكر في أنه من الضروري أن يصلوا بعد ذلك إلى نيو أورليانز في عربة لا تُحدث صوتا وتجتذب الأنظار، كما فكر في أن يستعير دولارا ونصفاً من سيده ليشتري قبعة سوداء جديدة تتمشى مع الوشاح الأخضر الجديد الذي صنعته له ماتيلدا، حتى إذا انتهت معارك الديوك وذهب إلى المدينة كان في أحسن مظهر.

بعد دقائق من الوصول إلى دكان صانع العربات، بقي تشيكين جورج في الخارج حتى لا يسمع مساومات سيده مع الصانع، ولكنه سمع صوت الجدل يعلو بين الرجلين.. سيده يطلب من الصانع أن يخفض السعر بضع دولارات في مقابل التأخير، والصانع يقول: إنه كان يريد المطالبة برفع السعر حيث ارتفعت أسعار المواد، كما أن أجور العبيد المحررين في ارتفاع مستمر.. وسرعان ما خفت حدة الجدل وخرج السيد مع الصانع وهما يضحكان، واتسعت حدقتا تشيكين جورج عندما رأى أربعة من العبيد الأحرار يدفعون العربة إلى خارج الورشة، كانت تحفة بحق، وقال الصانع:

- إنها أفضل عربة صنعتها حتى الآن، وهي على أتم الاستعداد للرحلة الطويلة.. من الذي سوف يرافقك في الرحلة.

أشار السيد إلى تشيكين جورج قائلا:

- عبدي هذا الواقف هناك، ومعنا اثنى عشر ديكا...

سارع تشيكين جورج إلى قيادة البغلين الذين استأجراهما ليربطهما إلى العربة، وساعده في عمله واحد من العبيد الأحرار، ونظر إليه الآخرون شزراً، وكان سيده قد أخبره من قبل أنه لا يطيق النظر إلى العبيد الأحرار.

تمنى له صانع العربات رحلة سعيدة، وقفز السيد إلى المقعد الأمامي ليقود العربة الجديدة، بينما قام تشيكين جورج بقيادة العربة القديمة وراء سيده.

وفي طريق العودة إلى المزرعة كان تشيكين جورج يفكر في زوجته وأمه، وطمأن نفسه إلى أنهما قادرتان على تحمل المسؤولية خلال غيابه الطويل، ثم بدأ يفكر في العم منجو الذي اعتلت صحته بشكل ظاهر، وأدرك أن العجوز لا يستطيع أن يعنى بنفسه بطيور المزرعة، ولكن تشيكين جورج – إن عاجلا أو آجلا – سوف يكون بحاجة إلى يد عاملة تساعده... وفكر في ابنه فيرجيل الذي بلغ السادسة من عمره.. يستطيع الصبي أن يعاون العم منجو خلال الرحلة، حتى إذا عادوا أمكن تكليف الصبي بالاستمرار في العمل، وعندما عرض الفكرة على ماتيلدا قالت غاضبة:

- اطلب من السيد أن يشتري عبدا يقوم بهذا العمل.

وقالت كيزي بحدة:

- ألم يكفنا أن حرمتنا الطيور من أحد أفراد الأسرة.

لم يشأ تشيكين جورج أن يدخل في معركة مع زوجته وأمه، ولكنه لم يكن يرغب في نفس الوقت أن يشتري سيده شخصاً غريباً يتدخل معه ومع العم منجو في مكانهم، ولم يكن متأكداً في نفس الوقت من أن الفكرة ستروق للعم منجو، وقد رأى كيف أن مساعده قد أصبح على علاقة وثيقة بالسيد.

وحيث كان العم منجو يشعر بالمرارة لأنه لم يذهب معهم في الرحلة إلى نيو أورليانز، فقد قال لتشيكين جورج:

- هل رتبتما أنت والسيد أن أقوم خلال غيابكما بإطعام تلك الطيور؟

وحاول تشيكين جورج جاهداً أن يقنعه بأن لا دخل له في القرارات التي يتخذها السيد. وتعجب في نفس الوقت لماذا لا يستسلم العجوز للأمر الواقع وقد بلغ السبعين من عمره.

بينما كان تشيكين جورج عائداً مع السيد بعد ظهر يوم الخميس إلى المزرعة، فوجئ بالمسز لي خارج البيت، ثم رأى مس ماليزي، ثم رأى زوجته تخرج من الكوخ ومعها أبناؤها وتبعتهم كيزي والأخت سارا.

اقتربت ربة البيت من زوجها وأسرت في أذنه شيئا، وعاد السيد متجهاً نحو تشيكين جورج، وقبل أن يفتح السيد فمه شعر الشاب بغصة

في حلقه، وجاءه صوت السيد كأنما من مكان سحيق: "مات منجو!"

أسرع العم بومبي وماتيلدا يسندان تشيكين جورج كل من جانب قبل أن يسقط على الأرض، ثم رافقاه إلى محلة العبيد بين بكاء الجميع، وساعدته ماتيلدا في الدخول إلى الكوخ تتبعهما كيزي حاملة المولود الصغير.

عندما أفاق تشيكين جورج من الصدمة قالت له ماتيلدا:

- عندما رحلتما صباح الاثنين، لم يستطع أحدنا أن ينام، وفي صباح الثلاثاء سمعنا نباح الكلاب ثم خيل إلينا أننا سمعنا صرخة.

وتدخلت كيزي في الحديث قائلة:

- كانت الصرخة لماليزي، وأسرعنا إليها لنعثر على العجوز البائس راقداً على الأرض.

وقالت ماتيلدا:

- كان لا يزال على قيد الحياة، ولكن جانبا واحداً من فمه كان يتحرك.

وأردفت كيزي تقول:

- الرحمة يا إلهي.. لم يكن أحدنا يعرف ما يجب أن يفعله.. حاول العم بومبي أن يرفعه ثم تعاونا جميعا في حمله إلى سرير العم بومبي.

قالت ماتيلدا بعد فترة من الصمت:

- سمعناه يهمس بضعف: الطيور.. كان علي أن أعيدها إلى حظائرها.

وقالت كيزي:

- إن المس ماليزي أسرعت لتخبر المسز لي بما حدث، وجاءت ربة البيت تهرول قائلة: إنه لا بد من إعادة الطيور إلى حظائرها وإلا قلب السيد المكان رأسا على عقب حين عودته ونادت ماتيلدا على فيرجيل..

وقالت ماتيلدا:

- لم أكن أريد ذلك، ولكنني تذكرت حديثك عن الكلاب والثعالب والقطط البرية التي تحاول التهام الطيور، ورغم فزع الصبي إلا أنه قال لي: مامي أنا ذاهب، ولكنني لا أعرف ما يجب عليَّ أن أفعله، وقال له العم بومبي: خذ هذه الحبوب وانثرها أمام كل طائر تقابله وسوف أتبعك.

وقالت سارا:

- حيث إنه لم يكن هناك وسيلة للاتصال بالطبيب، فلم يكن بوسعهم سوى الانتظار.

وانطلق بكاء ماتيلدا، وقالت كيزي:

- إنها تبكي لأننا عند عودتنا بعد حديثنا مع المسز لي، وجدنا منجو قد أسلم الروح.. مات المسكين دون أن يكون أحد بجانبه.

وقالت المسز لي:

- إنها لا تعرف ما يجب فعله ولكنها تفكر في أن زوجها قال: لا بد من

دفن الميت خلال يوم قبل أن تتعفن الجثة، لهذا شرعنا في حفر قبر ووضعناه في أحسن ما وجدنا من ثيابه، ونشر عليه العم بومبي بعض العطر، وجاءت المسز لي بالكتاب المقدس حيث قرأت بعض التلاوات ثم طلبنا لروح العم منجو الرحمة ونحن نهيل عليه التراب.

وقالت ماتيلدا باكية:

- لقد فعلنا أقصى ما في استطاعتنا.

غادر تشيكين جورج الكوخ بعد قليل وهو مشغول الخاطر.. كما أبدى الجميع قلقهم واهتمامهم بالعم منجو رغم أنهم في حياته لم يكونوا يشعرون بالميل إليه، وعندما لمح العم بومبي اتجه نحوه وقال له الرجل:

- لقد فعل ابنك عملا طيبا.. إنه لا يزال هناك يعتني بالطيور.

أسرع تشيكين جورج إلى حيث يعمل ابنه، ورفعه في الهواء عاليا وهو يقول له:

- لقد أحسنت يا فتى، والآن عد إلى مامي.

عندما انصرف الصبي أخذ جورج يفكر في الخمسة عشر عاما الماضية التي كانت يستمع خلالها إلى نصائح معلمه وصديقه الأقرب إليه من أبيه، وقفزت الأسئلة إلى ذهنه: "من أين جاء العم منجو؟ هل كانت له زوجة وأبناء؟ لقد كان أقرب الناس إلى العجوز ومع هذا فما أقل ما يعرفه عنه".

بقي تشيكين جورج في مزرعة الدواجن وحده طوال اليوم التالي والليل حزينا واجما يجتر ذكريات الماضي ويكاد يسمع صوت معلمه العجوز يدوي في أذنيه. وظهر السيد لي السبت عابس الوجه ولكنه دخل في الموضوع الذي جاء من أجله رأسا حيث قال:

- لقد فكرت في الأمر برمته ورأيت أن أفضل وسيلة أن يحرق كوخ منجو الآن.. هذه خير وسيلة للتخلص منه.. بعد لحظات كان الكوخ الذي ظل مقرا للعم منجو من أربعين عاما، أثرا بعد عين.

أدرك تشيكين جورج من بقاء السيد بعد احتراق الكوخ أن هناك موضوعا آخر يشغل باله، ولم يطل انتظاره فقد فاجأه السيد بقوله:

- لقد فكرت في الرحلة إلى نيو أورليانز.. لا نستطيع أن نغادر المزرعة في الوقت الحاضر وليس هناك من يستطيع مراعاة الطيور أثناء غيابنا، ولا أستطيع أن أذهب وحدي، ومن الحماقة أن نذهب إلى مسابقة الطيور ما لم نكن واثقين من الفوز.

فكر تشيكين جورج في العربة الجديدة والمصروفات التي أنفقت، والجهود التي بذلت خلال الشهور الماضية لتدريب الطيور، والآمال المعلقة على الفوز، وقال وهو يبلع ريقه بصعوبة:

- نعم يا سيدي!

أحس تشيكين جورج بالوحدة وهو يعمل وحيدا بمزرعة الدواجن، وأدهشه أن يستطع العم منجو أن يتحمل تلك المزرعة طوال خمسة

وعشرين عاما قبل ذهابه لمساعدته.

وفكر في أن فرجيل هو الحل الوحيد؛ فهو يستطيع أن يتعلم على مهل كما فعل معه معلمه العجوز، ولكن المشكلة هي اعتراض ماتيلدا والجدة كيزي.

ورغم اعتراض ماتيلدا لأن الصبي لم يتجاوز السادسة من عمره إلا أنها رضخت في النهاية، ولكن الصبي خيب آمال أبيه، فما يكاد يفرغ من عمل يكلف به حتى يلعب أو يجلس على الأرض شاردا، وعندما اكتشف في النهاية أن حب الطيور لا يجري في دم ابنه مثلما كان معه قرر أن يقنع بقيام الصبي بمساعدته في إطعام الطيور وتغيير ماء الشرب، على أن يذهب فرجيل بعد ذلك ليلحق بأمه في الحقل.

وكان تشيكين جورج يحتقر أعمال الحقل دون أن يعلن عن رأيه محافظة على مشاعر كيزي وماتيلدا، وتذكر قول العم منجو:

- لو خيرت بين امتلاك قطعة أرض أو ديك مقاتل لما اخترت سوى الديك.

أراد تشيكين جورج أن يروض عن نفسه قليلا فقام بالتجول بين الأشجار ليراقب الديوك والدجاجات، ووقع بصره على الديك الأعور الذي كان العم منجو يحبه ويحنو عليه، ووجد الديك يلتقط الحبوب من الأرض فقال له:

- لا أشك أنك تحس بغياب العجوز.

ولكن الديك التهم ما تركه ومضى في حال سبيله بحثا عن الطعام، وتحولت أفكار تشيكين جورج وجهة أخرى: السيد يملك الطيور والبشر وأرواحهم، وتساءل: ماذا عن حال الإنسان الذي لا ينتمي إلى أحد؟ وكف يكون الإنسان عندما يكون حرا؟ وأقنع نفسه بأن ذلك رأيه وإلا ما رفض السيد لي وأمثاله من البيض فكرة العبيد الأحرار، ولكنه تذكر في نفس الوقت ما قالته له النساء من العبيد الأحرار: ليس معنى أن تكون حرا أن تصبح عبدا.

خلال فترات وحدته الطويلة بدأ تشيكين جورج يفكر في الأمر مليا، ورأى أحد الديكة الطليقة يتقدم مجموعة من الدجاجات وهو يسير مختالا، وقلد صوت الديك فاستدار نحوه متحفزا، ورفع عنته ونشر جناحيه متحديا مدافعا عن زوجاته ضد ذلك الغريب الذي يريد أن يسلبه ما يملكه، وفي تلك اللحظة قرر تشيكين جورج أن يترك الديك حراً طليقاً، وأقسم ألا يضمه إلى قائمة الديوك المقاتلة ليظل مستمتعا بحريته.

في آخر رحلة حدثه أحد العبيد الأحرار عن قصة اختطاف البيض لزوجة الزعيم أوسكيولا وهي زوجة هاربة من العبودية، ونظم أوسكولا جيشا من الهنود والعبيد الهاربين، واستطاع أن يوقع فرقة من الجيش الأمريكي في كمين ويقتل أكثر من مائة جندي، ووفقا للقصة فإن للأمريكيين جيشا كبيراً أرغم أوسكولا ورجاله على الفرار إلى مستنقعات فلوريدا، وفي ربيع عام ١٨٣٦ عاد جورج يحمل أنباء جديدة مؤداها أن الرئيس الأمريكي أمر الجيش بطرد الهنود غربي نهر المسيسبي!

وعندما حضر السيد الاجتماع التالي لملاك الأراضي كازويك جاء تشيكين جورج بأخبار جديدة عن قتال الجيش الأمريكي لآلاف الهنود ودفعهم نحو أوكلاهوما.

جاء عام ١٨٣٧ يحمل بعض الأنباء الطيبة عندما جاء المولود السادس لتشيكين جورج أسمته ماتيلدا جيمسي، وقالت الجدة كيزي:

- يبدو أنكما لا تستطيعان إنجاب سوى الذكور.

وأجابها تشيكين جورج ضاحكاً:

- سوف نعمل في الحال لنأتيك بفتاة.

لم تكد تمضي بضع شعور حتى كان سلوك تشيكين قد تغير تماماً، فلم يكن يترك البيت إلا نادراً، وشعرت ماتيلدا بآلام الوضع مرة أخرى، ووقف تشيكين جورج بالخارج ينتظر في قلق حتى سمع صوت مامي كيزي في الداخل تقول:

- شكراً للرب.. شكراً للرب.

أدرك أنه رزق بفتاة، وأخبرت ماتيلدا حماتها أنها اتفقت مع جورج منذ سنوات على أن يسميا أول فتاة لهما: كيزي... وقالت الجدة كيزي:

- لم أعش حتى هذه السن عبثاً.

أصرت الجدة كيزي على أن يجتمع تشيكين جورج بأولاده والصغيرة كيزي ليروى لهم قصة جدهم الأفريقي كونتا كنتي.

ذات مساء بعد شهرين كان الأطفال قد استغرقوا في اللعب عندما سأل تشيكين جورج زوجته:

- ماتيلدا.. كم استطعنا أن نوفر من المال؟

أجابته قائلة في دهشة:

- ما يزيد قليلا عن المائة دولار.

- هذا كل ما ادخرناه؟

- ألم أقل لك طوال السنوات الماضية أنك تنفق كثيراً وليس قليلا؟

وسألته عن سبب سؤاله قال:

- إنني أفكر في أمر خطير.. لو استطعنا خلال السنوات القادمة أن نوفر أكبر مبلغ مستطاع فربما استطعنا أن نشتري حريتنا.

عقدت الدهشة لسانها فلم تستطع الكلام، وقال تشيكين جورج بصوت مرتفع:

- بدلا من أن تفتحي فمك كالبلهاء أحضري ورقة وقلما،

وعندما امتثلت لأمره عاد يقول:

- علينا أن نحسب المبلغ الذي يحدده السيد لنا جميعاً...

وجعل تشيكين جورج يحدد سعر كل فرد من أفراد الأسرة قبل أن

تسجل في الورقة: ثمانمائة دولار لماتيلدا وثلاثمائة لكل ولد وعندما طلب منها أن تضرب الرقم أخبرته أن أولادهما سبعة فقال:

- وذلك الجنين الذي تحملينه في بطنك!

ضحكت ماتيلدا.. وسألها عن الثمن الذي سيحدده لشراء ذلك العبد الأسود الذي يشاركها الفراش كل ليلة، ولم تصدق القصة التي رواها لها على لسان عبيد المستر جيويت عندما أخبره أن سيده عرض أربعة آلاف دولار على السيد لي.. وعندما طلب منها أن نضيف ثلاثة آلاف سألها عن المجموع فأخبرته أن حاصل المجموع بلغ اثنين وستين ومائة دولار، وقالت ماتيلدا:

وماذا بشأن الجدة كيزي؟

وقال جورج:

- هل تحسبين أنني أنسى مامي كيزي. إنها تعدت الخمسين من عمرها الآن، وأظن السيد يقبل ستمائة دولار..

وقالت ماتيلدا وهي تراجع عملية الجمع:

- هذا يجعل المجموع ثمانية وستين ومائة دولار

وأطلق تشيكين جورج صفيراً من فمه وهو يقول:

- أوه! هذا يعني أننا نساوي ثروة ضخمة من البيض! ولكنني سأكافح لتحقيق هذا الأمل.

وسكت برهة ثم أردف يقول:

- إنني أعرف ما يشغل بالك الآن: المس ماليزي والأخت سارا والعم بومبي.

أعربت ماتيلدا عن امتنانها وقالت:

- لقد أصبحوا أهلا لي كما هم بالنسبة لك، لا نترك المكان ونخلفهم وراءنا.

ولأول مرة منذ اثنتي عشر عاما مضت على زواجها، شعرت ماتيلدا برغبة قوية في أن تحضن زوجها بقوة، ولكنها وقفت جامدة مكانها من شدة الانفعال، وعندما تمالكت أعصابها سألته:

- جورج.. أريد أن أسألك كيف جاءتك تلك الفكرة؟

- كنت ألتقي في رحلاتي مع السيد بالعديد من العبيد الأحرار، وطالما حدثوني عن العبيد الأحرار في الشمال وما يشغلون من أعمال ويعيشون في بيوت يملكونها ويحصلون على أجور طيبة.. أريد كذلك أن يتعلم أبنائي القراءة والكتابة.

قالت ماتيلدا وعيناها تشعان ببريق الفرح:

- يا إلهي! أتمنى أن يكونوا أفضل مني.

- ما رأيك في أن تدعو السيدة ماتيلدا إلى بيتها بعض الفتيات الأحرار، وتقدم لهن الشاي، ويتحدثن عن أشياء من هذا القبيل؟

انفجرت ماتيلدا ضاحكة وهي تقول:

- يا إلهي.. لا شك أنك جننت يا رجل! ولكن هل أخبرهن عما قلته لك ليلة زواجنا؟

عندما لم تر على وجهه ما ينبئ أنه يذكر مضت تقول:

- حيثما تذهب أذهب معك، وحيثما تسكن يكون مسكني وأهلك هم قومي.

الفصل الثاني عشر

انشغل الصغير في صُنع سلة من السلك الحديدي كي يُدخل السرور على قلب سيده، وعرض تشيكين جورج على السيد جرة الماء الصغيرة التي صنعها ابنه توم من الأسلاك الحديدية، في انتظار أن يسمع استحسان سيده، ولكن السيد خيب آماله مما دفع جورج إلى أن يدخل رأسا في الموضوع الذي يشغل باله، وقال:

- أنت تصرف الكثير من النقود يا سيدي على أعمال الحدادة، وهذا الغلام ولد حداداً بالسليقة.. إنه يشحذ سن الفؤوس ويصلح ما يحتاج إلى إصلاح. ولقد أخبرني إزايا العبد الأسود الذي يمتلكه السيد أسكيو ويعمل حداداً له أنه يستطيع أن يحول أي غلام يعمل تحت إشرافه إلى حداد ماهر، ذلك الحداد الزنجي يربح لسيده مالا كثيراً، وهو ما يستطيع توم أن يحققه لك في المستقبل يا سيدي.

وقال السيد متجهماً:

- يبدو لي أن ذلك الغلام يضيع وقته في حكاية عن الأشياء بدلا من الاهتمام بعمله في الحقل.

- إنه لم يتخلف عن العمل في الحقل يوما واحدا يا سيدي، وهو يصنع هذه الأشياء أيام الأحد في وقت فراغه.

قال السيد إنه سوف ينظر في الأمر، واتجه إلى المطبخ ليسأل

المس ماليزي عن معلوماتها فقالت:

- ذلك الفتى طراز آخر غير بقية إخوته يا سيدي وسوف يكون له شأن في المستقبل.

وقال السيد عابسا:

- أرجو ألا يكون كشقيقه الأكبر، لقد تسامحت معه، وكانت النتيجة أن أصبحت مطاردة النساء هي شاغله الشاغل.

- تعني فرجيل يا سيدي... ولكن توم شيء آخر.

وبعد خمسة أيام قال السيد لتشيكين جورج:

- لقد اتفقت مع السيد أسيكو لكي يدبر مأوى لابنك في مزرعته لمدة ثلاث سنوات يتدرب فيها على أعمال الحدادة تحت إشراف عبده إزايا ولكني أنذرك بأن الفتى لو فشل في عمله فسوف تدفع الثمن غاليا.

ولم يتمالك جورج نفسه من الفرحة وقال:

- لن تندم على ذلك قط يا سيدي.

أسرع تشيكين جورج إلى ابنه لينهي إليه الخبر السار، وجرت الصغيرتان كيزي وماري تشيعان الخبرين بقية أشقائهما، وكان فرجيل يوشك أن يغادر المكان ليذهب إلى العروس التي تزوجها ورمقه أخاه بنظرة حادة قابلها توم بابتسامة. ولكن أعصاب توم توترت بعض الشيء

وهو يرى أشفورد شقيقه المفتول العضلات ذا الثمانية عشر عاما مقبلا نحوه، وبعد جدل قصير قال أشفورد:

- لقد كنت الطفل المدلل دائما! تداهن كل إنسان وبذا تحصل على كل المزايا.

وكان الذي سمعه من جورج الصغير شيئا آخر حيث قال له بمرارة:

- كنت أتمنى لو أن الفرصة سنحت لي لكي أهرب من هذا المكان لأن أبي يرهقني بالعمل حتى الموت، لمجرد أنني أحمل اسمه، لقد كان يتصور أنني سأكون مهووسا بالطيور مثله، ولكنني أكره تلك الطيور البشعة!

أما بالنسبة لكيزي الصغيرة التي بلغت العاشرة من عمرها وماري ذات الثمانية أعوام، فقد ظلتا تلازمان أخاهما المفضل قبل أن يذهب في الصباح إلى مقر عمله الجديد.

بعد تسعة شهور من الغياب، خرج فرجيل بالعربة يحمل تصريح سفر من السيد ليحضر حفل العشاء الذي يقام بمناسبة عيد الشكر، وترقرقت الدموع في عيني توم وهو يرى الجميع واقفين خارج أكواخهم في محلة العبيد في انتظار وصوله، وبعد تبادل التحيات والقبلات، أخرج من الكيس الذي كان يحمله الهدايا التي صنعها لهم بنفسه من الحديد المشغول، وجال توم ببصره ورأى الجميع عدا جورج الصغير وأدرك أنه لا يزال في مزرعة الدواجن، وأخبره فرجيل أن أشفورد ذهب هو الآخر

ليلتقي بإحدى الفتيات في مزرعة أخرى بناء على تصريح من السيد.

وابتهج توم عندما رأى العم بومبي المريض وقد أجلس على مقعد أمام كوخه يشترك معهم في الاحتفال بالعيد أحس توم باضطراب مشاعره وقد بلغ السادسة عشرة من عمره وهو يرى الطريقة التي يعامله بها الجميع على أنه أصبح رجلا، وأقبل تشيكين جورج فاتحا ذراعيه يستقبل ابنه ويسأله:

- هل بدأت تكسب بعض المال؟

- كلا.. ليس بعد يا أبي.. لا تزال أمامي فترة طويلة في التدريب.

- حسنا.. قل لذلك الزنجي إزايا أنني أريده أن يعلمك أصول المهنة في أسرع وقت.

وسأل عن جورج الصغير، وهل يصل قبل موعد العشاء، وأجاب تشيكين جورج بقوله:

- ربما يجيء في الموعد وربما يتأخر، هذا الولد الكسول يؤدي عمله بتراخٍ.

وعندما سأل توم العم بومبي عن صحته، قال تشيكين جورج:

- لا تقلق على العم بومبي.. سوف يعيش ليبلغ المائة.. رحيلك أصابه المرض مرتين وفي كل مرة بعد المرة نعد العدة لدفنه فترتد إليه الحياة مرة أخرى!

طلبت الجدة كيزي من الجميع أن يتعاونوا على حمل العم بومبي في مقعده إلى المائدة التي أقيمت تحت شجرة، وأقبل الجميع على ألوان الطعام المختلفة في شهية كأنهم لم يأكلوا منذ زمن، وكانت الجدة كيزي ومامي ماتيلدا تملآن طبق توم كلما أفرغ ما فيه من الطعام في جوفه، وعندما امتلأ طبقه للمرة الثالثة قال:

- وفروا بعض الطعام لجورج الصغير عندما يجيء.

وقالت ماتيلدا وهي تقدم له قطعة من الأرنب:

- سوف يتبقى له الشيء الكثير.

كان توم يتناول الحلوى التي أعدتها المس ماليزي، عندما قال له العم بومبي بصوت ضعيف:

- هل بدأت تصنع الحدوة للجياد؟

وأجاب توم قائلا:

- إنهم يسمحون لي بنزع الحدوة البالية، ولكنني لم أبدأ في تركيب الحدوة بنفسي بعد.

وسأل تشيكين جورج عن الأجر الذي يتقاضاه الحداد إزايا في مقابل تركيب الحدوة الواحدة، وأخبره توم أن الحداد يتقاضى أربعة عشر سنتا، وقال تشيكين جورج:

- إذن فأعمال الحدادة لا تدر من الربح مثلما تدره الديكة في قتالها!

وسألته جدته عن الأعمال التي يقوم بها فقال:

- إنني أسبق الحداد إلى الورشة، وأشعل نار الكور ثم أجهز العدد التي يحتاج إليها الحداد عندما يحمر الحديد ويكون في حاجة إلى الطرق.

وسألته الأخت سارا:

- هل يحضر للورشة زبائن السادة البيض؟

وأجاب توم قائلا:

- نعم.. تجيء أعداد كبيرة من البيض، ليس أقل من عشرة كل يوم.

- حسنا.. ما هي الأخبار التي تسمعهم يتحدثون عنها؟

سكت توم برهة في محاولة ليتذكر أهم الأخبار التي سمع إزايا وزوجته يرددانها ثم قال:

- اختراع جديد يسمونه التلغراف.. يقال: إن السيد مورس في واشنطن قد استطاع أن يتحدث بوضوح مع شخص آخر في بالتيمالر.

وبعد فترة أخرى من الصمت سألهم توم عما إذا كانوا قد سمعوا عن موت الرئيس وأن رئيساً جديداً يدعى زخاري تيلور قد خلفه، قال تشيكين جورج باستياء:

- كل واحد يعرف هذا الخبر!

وأخبرهم توم عن أغاني الزنوج التي يغنيها الشباب البيض، وغنى

لهم ما يذكره من بعض تلك الأغاني، وقالت كيزي:

- كل واحد يعرف هذا الخبر!

- بعض العبيد الأحرار الذين يحضرون إلى الورشة أخبروا المسز إزايا أن أعداداً كبيرة من السود في الشمال يناهضون العبودية وأنهم يطوفون البلاد ويلقون المحاضرات على الجموع المحتشدة حتى ينتزعوا الدموع من أعينهم وهم يروون قصص حياتهم قبل فرارهم إلى الحرية، من بين هؤلاء فريدريك ودوجلاس الذي تربى في أحضان العبودية طفلا في ماريلاند. وكيف علم نفسه القراءة والكتابة ثم اشتغل بجد حتى وفر ما يكفي من المال لشراء حريته.

تبادل ماتيلدا وتشيكين جورج النظرات، بينما تابع توم حديثه قائلا:

- يقولون: إن الناس يتجمعون بالمئات عندما يقف بينهم خطيبا، وأنه ألف كتابا ويوشك أن يصدر مجلة.

واستأنف توم حديثه قائلا وهو ينظر إلى ماتيلدا والجدة كيزي والأخت سارا:

- وهناك نساء سود شهيرات أيضا مثل سوجورنو تروث التي كانت من العبيد وطولها يزيد عن ستة أقدام وهي تحاضر الجموع أيضا ويستمع إليها السود والبيض رغم أنها لم تتعلم القراءة والكتابة.

قفزت الجدة كيزي بنشاط وعيناها تلتمعان ببريق غريب وقالت:

- إنني أشعر برغبة في الذهاب إلى الشمال لأخاطب الجموع!

وتخيلت كيزي أنها تواجه جمهوراً كبيراً وقالت تخاطبه:

- عليكم أيها البيض أن تستمعوا جميعا إلى كيزي! لن نسمح باستمرار هذه المظالم! لقد مللنا نحن العبيد من هذه العبودية!

وقال تشيكين جورج وهو يكاد ينفجر من الضحك:

- مامي.. يقول الولد أن تلك المرأة تبلغ قامتها ستة أقدام وأنت أقصر من هذا بكثير!

وروى توم قصة امرأة أخرى مشهورة اسمها هاريت تابمان استطاعت أن تتسلل إلى الجنوب بضع مرات لتقود مجموعات كبيرة من العبيد إلى الحرية في الشمال، وقد أعلن البيض عن مكافأة قدرها أربعون ألف دولار لمن يأتي بها حية أو ميتة. وقال:

- في النهاية إن مناقشات كبرى تدور في الشمال حول موضوع العبودية بين رجلين من البيض أحدهما يدعى سينغن دوجلاس والآخر إبراهام لنكولن.

وسألت الجدة كيزي:

- من منهما الذي يناصر العبيد؟

- حسنا.. يبدو أن السيد لنكولن على قدر ما أذكر!

- مجدوا الله واطلبوا أن يمنحه القوة!

مصمص تشيكين جورج شفتيه وقال لتوم:

- استمع إليَّ يا فتى. ما رأيك في أن نتمشى سويا بعد هذه الوجبة الدسمة؟

دون أن يلتفت تشيكين جورج إلى الوراء شبك ذراعه في ذراع توم ومشيا في صمت، ثم قال الأب:

- ما رأيك في أن نذهب إلى مزرعة الدواجن لنلقي نظرة على الطيور؟ ولتعرف السبب الذي أحرج جورج الصغير.. كل الذي أعرفه أنه ربما أحس بالجوع وطهى لنفسه وأكل بعض الطيور في مناسبة عيد الشكر.

ضحك توم وهو يقول:

- جورج الصغير فتى طيب وعيبه الوحيد هو البطء، لقد أخبرني مرارا أنه مولع بالطيور مثل ولعك بها.

ولكن تشيكين جورج هز رأسه قائلا بإصرار:

- لا يوجد فرد في هذه العائلة يحب الطيور مثل حبي لها، يبدو أن كل ولد من أبنائي سيقضي بقية عمره ينتقل من عمل إلى آخر في الحقل. أنت الوحيد الذي كنت عاقلا واخترت لنفسك مهنة تليق بالرجال.

ولما كان توم يعرف احتقار أبيه للزراعة ومن يمتهنونها فقد قال:

- أبي.. لو لم يعمل البعض في الزراعة ما وجد الآخرون شيئا يأكلونه، لقد اخترت الحدادة مثلما اخترت أنت تدريب الطيور المقاتلة.

- حسنا.. سوف تربح من وراء هذه المهنة النقود التي تستطيع أن تنفقها كما تشاء.

- إنني لن أربح أي مال خلال العامين المقبلين حتى أتم تعليمي وأبدأ في العمل لحساب السيد لي.. هذا إذا أعطاني شيئا في مقابل العمل!

- إنه سوف يمنحك أجراً بلا أدنى شك، ليس الرجل شريراً بالقدر الذي تصوره جدتك وأمك، ربما كانت له طباع غريبة، ولكنك لو عرفت كيف تتعامل معه مثلما أفعل قائلا له: إنه من الطبقة العليا؛ فإنه يعاملك معاملة طيبة.

سكت تشيكين جورج برهة ثم أردف يقول:

- هذا السيد أسيكو الذي تقيم عنده. هل لديك فكرة عن الأجر الذي يمنحه لحداده؟

قال توم

- أعتقد أنه يعطيه دولارا في الأسبوع.. لقد سمعت زوجة الحداد تقول: أنه يمنحه دولارا كل أسبوع لتضيف إلى مدخراتهما.

وقال تشيكين جورج بازدراء:

- هذا أقل مما نربحه عن الديك المقاتل في دقيقة واحدة! على أي

حال سوف أتحدث مع السيد بعد رجوعك ليكون أكثر سخاء من السيد أسكيو.

مشيا في صمت بعض الوقت قبل أن يقول تشيكن جورج:

- هل فكرت في أن تكون لك ورشة مستقلة للحدادة يا فتى؟
- ماذا تعني؟ وكيف أستطيع أن أفعل ذلك يا أبي؟
- ألا تفكر في أن توفر المال الذي ستحصل عليه لتشتري حريتك؟

عندها عقلت الدهشة لسان توم، استمر الأب في حديثه قائلا:

- منذ بضع سنوات، ذات مساء بعد مولد كيزي الصغيرة، أخذنا نفكر أنا وأمك في المبلغ الذي نستطيع أن نشتري به حريتنا، حرية الأسرة بأكملها، ووفقا لأسعار العبيد السائدة اليوم وجدنا أن المبلغ يصل إلى ثمانية وستين ومائة دولار.

وأمام دهشة الابن، قال تشيكين جورج:

- مبلغ طائل ولا شك! ولكنني منذ ذلك اليوم وأنا أقتصد كل ما أربحه في قتال الطيور، لم أربح القدر الذي كنت أتخيله، ولا أحد يعرف هذه القصة غيري وأمك، وفرنا حتى الآن أكثر من ألف دولار تدفنها ماتيلدا في زلعة تحت الأرض، وإذا سارت الأمور على نفس المنوال لمدة عامين حتى تبدأ عملك كحداد لحساب السيد ربما تزيد مدخراتي ثلاثمائة دولارا أو أربعمائة دولارا أخرى.

هز توم رأسه مفكراً وهو يقول:

- نعم.. لو جمعنا ما نربحه معا فقد تستطيع أن تدفن كل عام خمسمائة أو ستمائة دولارا.

وصاح تشيكين جورج بانفعال:

- بهذا المعدل وإذا لم ترتفع أسعار العبيد.. كم عدد السنين التي نحتاجها لتوفير القدر المناسب لشراء حريتنا؟

قال توم بعد قليل:

- حوالي خمس عشرة سنة.

وقال جورج بوجه مشرق:

- بجهدنا معا نستطيع أن نحقق هذا الأمل، وعندئذ ترحل الأسرة إلى الشمال حيث ننجب أبناء وأحفاد من الأحرار.. ما رأيك في هذا يا فتى؟

أمسك كل منهما بكتف الآخر وكأنما أصبح الأمل حقيقة في نفس اللحظة التي أقبل فيها جورج الصغير وهو يصيح:

- توم.. توم.

تصافح الشقيقان بحرارة ثم قال جورج الصغير:

- إنني سعيد لرؤيتك يا توم.

وقال له تشيكين جورج:

- على مهلك يا بني.. احتفظ ببعض قوتك لتتمكن من تناول العشاء.

وقال جورج الصغير:

- لست متعبا إلى هذا الحد يا أبي.

وقال له توم:

- لماذا لا تسرع بالذهاب إذن... سوف أبقى هنا مع أبي بعض الوقت.

وقال تشيكين جورج:

- من الأفضل أن تسرع.. لا أعرف كم من الوقت تستطيع أمك أن تمنع إخوتك من التهام ما تبقى من الطعام؟

بينما كان توم يراقب أخاه وهو يجري مسرعا نحو محلة العبيد، قال تشيكين جورج:

- يحسن أن نجعل المدة التي نقدرها للحصول على حريتنا ستة عشر عاماً!

وسأل توم بدهشة:

- وما السبب؟

- بالقدر الذي يستهلكه هذا الولد، سوف يكلفني طعامه أجر عام كامل حتى ذلك الحين!

في نوفمبر ١٨٥٥ ثار اهتمام أصحاب الديوك المقاتلة في شمال كارولينا للنبأ الذي شاع في المنطقة؛ فقد استضاف المستر جيويت الثري الكبير في قصره أحد كبار الأثرياء الإنجليز من المهتمين بتربية ديوك القتال، ويدعى السير إريك راسل، ووفقا للدعوة المكتوبة للحضور، فقد قبل الإنجليزي الحضور ليقاتل بديوكه التي يقال أنه ليس لها نظير في العالم كله، أفضل الديوك المقاتلة في الولايات المتحدة، وحيث أن الداعي والضيف كانا صديقين حميمين منذ زمن طويل، فقد اتفقا على ألا تتقاتل ديوكهما، وأن يجهز كل منهما عشرين ديكا لتقاتل أربعين طائراً يختارها أصحابها في مقابل رهان قيمته ثلاثون ألف دولارا. بالإضافة إلى مراهنات جانبية لا تقل عن ٢٥٠ دولارا في كل معركة، وتطوع أحد الأثرياء من أصحاب الديوك المقاتلة لاختيار الأربعين ديكا المنافسة على ألا يزيد عدد الطيور التي يدخل بها كل مشترك عن خمسة بالإضافة إلى الخمسة التي يختارها من بين طيوره.

ولم يكن السيد لي في حاجة إلى أن يخبر تشيكين جورج أنه سوف يدخل تلك المسابقة، وعند تجهيزه مبلغ ١٨٧٥ دولارا قيمة المراهنات التي سيدخل بها قال لمدربه:

- أمامنا ستة أسابيع لاختيار ديوكنا الخمسة.

وخلال الستة أسابيع التالية لم يكن السيد لي وتشيكن جورج يظهران في غير مزرعة الطيور، فقالت المس ماليزي للآخرين

- سمعت السيدة تصيح في وجه السيد لأنه سحب من البنك خمسة

آلاف دولارا مما يعادل نصف ثروته، وكانت تطلب منه أن يبتعد عن طريق أولئك الأغنياء.

كانت ماتيلدا وتوم – الذي بلغ الثانية والعشرين من عمره وصل إلى المزرعة منذ أربع سنوات وفتح ورشة الحدادة خلف محزن المحاصيل – يستمعان إليها في صمت، وكانت الأم قد صارحت ابنها بأن تشيكين جورج طلب منها في ثورة عارمة أن تسلمه الألفي دولار التي وفرها طوال السنين الماضية ليراهن بها على طيور السيد لي.

وكانت ماتيلدا بدورها قد عارضت زوجها الذي أكد لها أنها فرصة لا تعوض لكي يضاعف مدخراته وبذا يدخر ثمانية أو تسعة أعوام في طريق الكفاح للحصول على الحرية.

اختار تشيكن جورج والسيد لي سبعة عشر ديكا من أفضل المجموعة لتدريبها قبل بدء المنافسة، ثم وقع اختيار أقوى خمسة من بينها قبل بدء المنافسة، وقبل موعد المعركة بيومين، كانت الديوك الثمانية مستعدة ولا مجال للمفاضلة بينها، وقرر السيد لي أن يأخذها كلها ليختار من بينها في اللحظة الأخيرة الخمسة التي سوف تدخل المعركة.

وقرر السيد أن يبدأ الرحلة في وقت مبكر ليتاح له الوقت الكافي لإعداد الطيور للمعركة، وخلال الرحلة فكر تشيكين جورج في الجدل الذي قام بينه وبين ماتيلدا، وتذكر قولها في يأس:

- أنت تقامر بحريتنا يا جورج!

وتذكر انفعال السيد عندما عرض عليه الألفي دولار التي وفرها بعناء، وقال السيد:

- سوف يتضاعف مالك، وتأكد من أنني سوف أرد لك كل سنت اقترضته منك.

ولكن السيد لي قال بعد قليل من التردد:

- ولكن قل لي يا فتى.. فيم تحتاج أربعة آلاف من الدولارات؟

قرر تشيكين جورج في تلك اللحظة أن يغامر مغامرة أخرى فقال:

- سيدي.. أرجو ألا تسيء فهمي؛ فأنا أشعر نحوك بأسمى المشاعر، ولكنني فكرت أنا وزوجتي في توفير قدر من المال يسمح لنا بشراء حريتنا نحن وأولادنا.

وعندما رأى استياء السيد قال بسرعة:

- أرجوك ألا تغضب يا سيدي.

وقال السيد لي:

- سوف أخبرك أنا أيضا بما يدور في رأسي.. أما وقد بلغت الثانية والسبعين من عمري، وبعد كل تلك السنين من الكفاح الشاق في معارك الديوك المقاتلة طوال خمسين عاماً، فقد رأيت الدخول في هذه المعركة الفاصلة لأحقق ربحاً يتيح لي اعتزال هذا العمل، وبناء بيت جديد لي ولزوجتي، ليس القصر الذي كنت أحلم به، ولكنه بيت

من خمس حجرات، ولن أكون في حاجة حينئذ إلى هذا العدد الذي أملكه من العبيد، ومن ثم يكفيني الاحتفاظ بـ سارا ماليزي للطهي وخدمة الحديقة، وأحتفظ في البنك بمبلغ يساوي لي حياة كريمة بحيث لا أستجدي أحداً.

سكت السيد برهة وتشيكين جورج يستمع إليه في توتر، ثم أردف السيد يقول:

- لهذا أريد أن أقول لك يا فتى، لقد خدمتموني طوال الأعوام الماضية دون أن تسببوا لي متاعب حقيقية، فإذا فزنا في المعركة القادمة فسوف يتضاعف مالنا على الأقل، مالي ومالك، سوف تحصل على أربعة آلاف دولار وهي كل ما أطلبه منك ثمنا لحريتك وحرية بقية أفراد أسرتك، وأنت تعلم أن هذا هو نصف ثمنكم في الوقت الراهن، وبهذه المناسبة ربما لم أذكر لك من قبل أن السيد جيويت عرض عليَّ أربعة آلاف دولار ثمنا لشرائك ولكنني رفضت العرض! نعم... تستطيعون أن تذهبوا أحراراً إذا كانت هذه هي رغبتكم.

انفجر تشيكين جورج باكيا من شدة الانفعال وحاول أن يعانق السيد الذي تراجع ليتجنب العناق، وقال جورج:

- سيدي.. أنت لا تدري معنى ما تقول! إننا نريد الحرية بأي ثمن!

وقال السيد بصوت خشن:

- حسنا.. لا أدري السبب الذي من أجله تسعون إلى الحرية! ماذا

تفعلون بدون أحد يعنى بأموركم.. أعلم أن زوجتي سوف تقلب الدنيا عندما أخبرها أنني سأحرركم وذلك الحداد توم وحده إنه يساوي ألفين وخمسمائة دولار فضلا عن الأرباح التي يحققها لي!

سكت السيد برهة ثم أردف يقول:

- هيا أيها العبد.. اذهب قبل أن أغير رأيي.. لا شك أنني جننت، ولكني آمل أن تكتشف زوجتك وأمة وبقية العبيد أنني لست شريراً بالدرجة التي كانوا يتصورونني عليها.

تمنى تشيكين جورج لو أن الجدل الذي دار بينه وبين زوجته لم يقع، وقرر أن يبقي ما قاله السيد سرا حتى تكون مفاجأة يبتهج لها الجميع.

وصلت العربة إلى الساحة الكبيرة التي أعدت للمعركة الضخمة بين ثمانين ديكا، واستقبل السيد لي بالهتاف والتصفيق من بين جموع صغار أصحاب الديوك المقاتلة. وشاهد تشيكين جورج كثيرا من الوجوه التي يعرفها، وارتفع ضجيج الجماهير المحتشدة عندما ظهر في الساحة ثلاثة محكمين أخذوا يفحصون حفرة القتال وأبعادها والخطوط المرسومة أمام الدائرة من الجانبين، وعلا الضجيج عندما أفلت أحد الطيور المقاتلة من قفصه وأخذ يهاجم الناس حتى تمكن صاحبه من إعادته إلى قفصه، وكان الضجيج يعلو في كل مرة يصل فيها إلى الساحة واحد من أصحاب ديوك القتال المعروفين، وبصفة خاصة كل واحد من الثمانية الذين يشتركون في هذه المناسبة الكبرى ضد جيويت وراسيل.

وسمع تشيكين جورج واحد من الفقراء البيض يقول لصاحبه:

- هل رأيت إنجليزياً من قبل؟

وعندما أجابه بالنفي عاد يقول:

- يقال إن هذا الإنجليزي يمتلك ضيعة كبيرة وأماكن أخرى في اسكتلندا وأيرلندا وجامايكا.

كان تشيكن جورج يستمع إلى الحديث وهو مشغول بتقطيع بعض التفاحات ليطعم الطيور، ومن الضجيج الذي بلغ عنان السماء لم يكن في حاجة إلى من يخبره أن المستر جيويت والسيد راسيل قد وصلا إلى الساحة.

كان الإنجليزي قصير القامة قوي البنية، قابل نظرات الجمهور بشيء من الاستخفاف والتعالي، واستمر تشيكين جورج في إطعام الطيور وتدليك أجنحتها وأرجلها دون أن يعبأ بما يجري حوله.

ثم سمع الحكم يعلن المستر فريد رودلف بديكه الأحمر ضد السيد إريك راسيل في إنجلترا بديكه الرمادي المخطط! سمع نداء الاستعداد ثم البدء. وهمهمة الجمهور ثم صيحات الاستياء مؤكدة فوز الطائر الإنجليزي، وكانت صيحات الجمهور تنبئ تشيكين جورج المشغول بعمله أن الطائرين المقاتلين قد أصيبا وأن الحكم أوقف المباراة إلى أن يتم علاج الطائرين الجريحين، كما كانت صيحات الاستحسان تؤكد له هزيمة أحد طيور النبيل الإنجليزي.

كان تشيكين جورج تواقا إلى أن يتابع المعارك الجارية، ولكن انغماسه في إعداد طيوره والآمال التي يعلقها على الفوز لم تدع له مجالا لتحقيق هذه الرغبة وحاول أن يتخيل منظر ماتيلدا وهو يلقى في حجرها أربعة آلاف دولارا ليفاجئها بأنها قد أصبحت حرة! ودقّ قلبه بعنف وهو يسمع نداء الحكم:

- الطيور الخمسة التالية ملك السيد توم لي من إقليم كازويل.

قفز تشكيني جورج من العربة وهو على ثقة من أن سيده سيحضر الاختبار أول الطيور التي تدخل المعركة، وسمع صراخ الجمهور المحمومة:

- توم لي.. تو... و... م لي..

طلب السيد لي من مدربه أن يسلم الطيور الثمانية لمجموعة من البيض الفقراء الذين تطوعوا لمساندته، وأحس تشيكين جورج بالإعجاب الشديد نحو سيده؛ فلم يره طوال السبعة وثلاثين عاما التي قضاها معه في معارك الطيور المقاتلة أكثر وداً وثبات أعصاب، وسار المدرب وراء سيده يحمل حقيبة الأدوات الطبية اللازمة لعلاج الطيور الجريحة، وامتلأ فخراً وهو يرى وسمع البعض يشيرون إليه قائلين:

- هذا هو الزنجي تشيكين جورج!

ظهر النبيل الإنجليزي بالقرب من الحفرة حاملا تحت إبطه ديكا رائعاً، وبعد أن تبادل التحية مع السيد لي، وضع الإنجليزي الديك على

الميزان وأعلن الحكم أنه يزن خمسة أرطال وخمس عشرة أوقية! تقدم السيد لي حاملا ديكه الأسود المفضل الذي يتميز بالقوة والشراسة وعنقه الغليظ الذي يحاكي في حركته الثعابين، وأعلن الحكم أن وزن الديك ستة أرطال، وصاح الجمهور كأنما تعني زيادة أوقية واحدة أن توم لي قد فاز بالمعركة قبل أن تبدأ، وعلت بعض الهتافات ضد النبيل الإنجليزي مما أثار أعصابه وأخطر الحكم إلى تهديد الجمهور بوقف المسابقة مما أعاد الهدوء إلى الساحة، ولاحظ تشيكين جورج اضطراب سيده وامتقاع وجهي المستر جيويت والسيد آريك راسيل، وتمالك الإنجليزي هدوء أعصابه واقترب من السيد لي قائلا بصوت مرتفع:

- مستر لي يملك كل منا طائرا رائعاً. ما رأيك في رهان شخصي بيننا عليهما؟

تردد السيد لي قليلا قبل أن يقول:

- هذا يناسبني.. ما هو الرهان الذي تعرضه؟

- ما رأيك في عشرة آلاف دولار؟

شهق البعض من فرط الدهشة، ومضى الإنجليزي يقول:

- هذا ما لم تكن واثقا من قدرة طائرك على الفوز.

خيم صمت قاتل على الساحة، وكاد قلب تشيكين جورج يقفز من صدره في انتظار رد السيد على هذا التحدي؛ فقد كان علم أن الخمسة

آلاف دولار التي سحبها من البنك تمثل نصف ثروته، ومن ثم لا يمكن أن يجرؤ على قبول الرهان، وتصور المهانة التي سيتعرض لها عندما يرفض الرهان، وجاء صوت السيد لي مدويا:

- سيدي.. هل تقبل أن تضاعف قيمة الرهان؟

ساد الضجر في الساحة وتشيكين جورج لا يكاد يصدق أذنيه، فقد كان ذاك المبلغ يعادل كل ما يملكه السود من ثروة، المال السائل، البيت، الأرض، ثمن العبيد.

وظهرت الدهشة على وجه الإنجليزي ولكنه سرعان ما استعاد هدوء أعصابه وقال:

- إنك رجل رياضي بحق! أقبل الرهان!

فهم تشيكين جورج الموقف فجأة، كان السيد لي على ثقة من فوز طائره وأن هذا الفوز لا يعني تحقيق ثروة بالنسبة للسيد فحسب، وإنما سوف يخلق منه بطلا في عيون المتنافسين من البيض الفقراء.

وقف كل من المتنافسين خلف ديكه في الحفرة، وردت في أذني تشيكين جورج كلمات ماتيلدا:

- إنك تقامر بحريتنا جمعاً!

أعطى الحكم إشارة البدء، وقفز الديكان الأزرق الفضي والأسود في هدوء وارتطما ووقعا على الأرض، واستعاد الديكان توازنهما ثم قفزا

مرة أخرى في الهواء وظل كل منهما يبحث عن ثغرة ليقضي على خصمه، ووجه الديك الأسود ضربات قوية بجناحيه، ثم حاول كل منهما استخدام المنقار، وفجأة أصيب الطائر الأزرق في عظام الجناح ولكنه استعاد توازنه وتحفز للهجوم، وقفز الطائران في الهواء.. وتمكن الديك الأزرق من تجنب ضربة قوية من جناح خصمه وتمكن من القفز فوق الديك الأسود، والتحم الديكان على الأرض بعنف، وعلا الضجيج عندما أصيب الديك الإنجليزي، ولكنه نجح في إسالة الدم في صدر الديك الأسود، وواصل الديك الأزرق الضرب بأجنحته ومنقاره بشراسة، وازداد نزيف دم الديك الأسود، ولكن الديك الأسود قفز فجأة وأنشب مخالبه في قلب خصمه الذي سقط يتخبط في دمائه! وعلا ضجيج الجمهور:

- توم لي... توم لي... توم لي!

كاد تشيكين يقفز من شدة الفرح.. لقد أصبح الأمل في الحرية واقعا ملموسا. سار الإنجليزي بضع خطوات نحو السيد لي وقال:

- لقد حارب طائرك ببراعة لم أشهدها من قبل، ولقد سمعت أنك رجل رياضي لا ينسحب من المعركة.

- ما رأيك في جولة أخرى نضاعف فيها الرهان؟

تردد السيد برهة وهو يفكر في طائرين يتقاتلان لأول مرة من أجل الفوز بثمانين ألفا، واشرأبت الأعناق لتتابع الكلمات التي ستخرج من بين شفتيه، ووجد تشيكين جورج نفسه قول لسيده:

- إن طيورك تستطيع بأجنحتها القوية أن تصرع أي شيء.

وقال السيد لي بهدوء:

- قبلت الرهان على معركة أخرى يا سيدي.

تنهد تشيكين جورج بارتياح عندما وقع اختيار السيد على الديك الذي أطلق عليه اسم الصقر، بينما تقدم الإنجليزي يحمل ديكا رماديا، كان وزن كل من الديكين ستة أرطال تماماً.

عندما أعطى الحكم إشارة البدء، بدلا من أن يقفز الطائران في الهواء، ظلا يتبادلان الضرب بالأجنحة، وهاجم الطائر الإنجليزي بعنف بينما طائر السيد لي يتحين الفرصة ليضرب بمنقاره الحاد، وقفز الطائر الرمادي فجأة ووجه ضربة من مخلبه إلى رأس خصمه الذي سقط دفعة واحدة والدم ينزف من فمه. وصاح تشيكن جورج بقنوط:

- يا إلهي! يا إلهي!

واتجه نحو الحلقة ليرفع الطائر الميت والدموع تنفجر من عينيه وسار نحو العربة في صمت.

وخلف الحلقة تجمع البعض لتهنئة الإنجليزي والسيد جويت وقد أداروا ظهورهم للسيد لي الذي وقف مصعوقا إلى بقع الدم التي خلفتها المعركة على الأرض، واستدار الإنجليزي ليقول له ببرود:

- ماذا تقول؟

- أقول أن هذا يوم نحس!

وقال السيد آريك راسيل بهدوء:

- أعلم أن الإنسان لا يحمل مثل هذا المبلغ الضخم في جيوبه، ما رأيك في أن نلتقي غدا بقصر المستر جيويت لتسوية الأمور؟

وتمتم السيد لي بصوت منكسر:

- كما تشاء يا سيدي!

استغرقت رحلة العودة إلى المزرعة ساعتين سادهما صمت رهيب، ولم يكن السيد أو تشيكين جورج راغبين في الحديث، وأحس تشيكين جورج أنها أطول رحلة قطعها في حياته.

توجه السيد لي في صباح اليوم التالي إلى مزرعة الدواجن حيث كان تشيكين جورج يطعم بعض صغار الديكة في أقفاصها، وكان قد قضى الليل هربا من بكاء ماتيلدا ونواحها، وقال السيد لي:

- جورج.. لدي أخبار سيئة.

سكت السيد برهة ثم تابع حديثه قائلا:

- لا أدري كيف أنهي إليك الأخبار، ولكنك تعلم أنني لا أملك الثروة التي يتصورها البعض فيما عدا بضع آلاف، إنني لا أملك في الواقع سوى هذا البيت والأرض وبضعا من العبيد.

همس جورج لنفسه في يأس: "سوف يضطر إلى بيعنا!"

واستأنف السيد حديثه قائلا:

- المشكلة أن كل هذه الممتلكات لا تفي بنصف الدين، ولكن الإنجليزي عرض عليَّ حلا للمشكلة.

سكت السيد برهة ثم أردف يقول:

- لعلك سمعت ما قاله عنك، وكيف أنك مدرب قدير..

أخذ السيد نفسا عميقا قبل أن يستأنف الحديث قائلا:

- يبدو أن الإنجليزي في حاجة إلى استبدال مدربه الإنجليزي عندما يعود إلى وطنه، ويرى أن الاستعانة بمدرب زنجي سوف يكون أمراً مثيرا للمتعة.

لم يستطع السيد أن يواجه نظرات تشيكين جورج وهو يكمل الحديث قائلا:

- لم يشأ الإنجليزي أن يستغل الورطة التي أواجهها، وقبل أن يأخذ المال الذي أملكه مع رهن البيت، بالإضافة إلى استخدامك في إنجلترا لتدريب طيوره إلى أن تقوم بدورك بتدريب شخص آخر، وأخبرني أن هذه المهمة لن تستغرق أكثر من عامين.

أرغم السيد نفسه على أن يواجه نظرات تشيكين جورج ثم قال بمرارة:

- لا أستطيع أن أعبر لك عن مشاعري حيال هذا الأمر يا جورج.. ليس

لدي الخيار.. إنه يتركني صفر اليدين.. لقد انتهيت.. فقدت كل ما كافحت من أجله طول العمر..

لم يجد جورج الكلمات التي يمكن أن تقال في هذه المناسبة، وماذا بوسعه أن يقول.. أليس مجرد واحد من عبيد السيد؟

وأردف السيد يقول:

- أعلم أنك أيضا فقدت كل شيء، وأريد أن أكون عادلا معك، لهذا أعطيك كلمتي الآن وقبل أن ترحل بأنني سوف أرعى زوجتك وأبناءك، وأنه في اليوم الذي تعود فيه إلى البيت..

توقف السيد عن الحديث، ودفع يده في جيبه ليخرج ورقة مطوية نشرها أمام عيني تشيكين جورج وقال:

- هل تدري ما تحتويه هذه الورقة؟ لقد جلست أكتبها في الليلة الماضية.. إنك تتطلع إلى رجل قانوني للتحرير يا فتى! سوف أحتفظ بهذه الوثيقة في خزانتي حتى تعود.

ظل تشيكين جورج يحملق بذهول في الورقة المنشورة أمام عينيه وهو يقاوم الثورة العارمة التي تفجرت في أعماق نفسه ثم قال في النهاية بهدوء:

- سيدي.. لقد كنت أسعى إلى شراء حريتنا جميعا، والآن وقد ذهب كل شيء.. أنت ترسلني عبر البحار بعيدا عن زوجتي وأبنائي.. لماذا لا تحررهم الآن وتؤجل الأمر بالنسبة لي حتى أعود؟

ضاقت عينا السيد وهو يقول بانفعال:

- لست في حاجة إلى أن تخبرني عما يجب أن أفعله.. ليست غلطتي أنك أضعت ذلك المال.. إنني أعرض عليك الآن أكثر ما تستحق، وهذه هي مشكلتكم أيها الزنوج! لولا أنكم خدمتم في هذا المكان طول العمر لكان من الأفضل أن تنتبه لما تقوله.

احمر وجه السيد من الغضب وهو يضيف:

- ترددت في بيعكم لحظة واحدة!

نظر إليه تشيكين جورج نظرة اليائس وهز رأسه وهو يقول بمرارة:

- لو أن حياتي كلها تعني شيئا بالنسبة لك يا سيدي.. فكيف يطاوعك قلبك على أن تفعل شيئا كهذا؟.

قطب السيد جبينه وهو يقول بخشونة:

- اجمع كل ما تحتاج إليه.. سوف ترحل إلى إنجلترا يوم السبت القادم.

الفهرس